

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

حِينَ تُنَزَّعُ الرُّوحُ وَيَسْتَقِظُ الْمَصِيرُ

تأليف: رَدَّاد السَّلَامِي

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

حِينَ تَنْزِعُ الرُّوحُ وَيَسْتَبِقُ الْمَصِيرُ

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

السورة التي توقظ الإنسان من غفلته عن النهاية

ليست سورة النازعات حديثاً عن الموت فحسب، بل هي اقتحامٌ قرآنيٍّ مهيبٌ لذلك السكون الكاذب الذي يصنعه الإنسان حول حياته، حتى يتوهم أن الطريق لا ينتهي، وأن الجسد الذي يمشي به في الأرض سيظل قادراً على حمله، وأن العالم الذي اعتاد انتظامه لن يختلّ، وأن الماضي قد مضى بلا حساب، وأن المستقبل سيجيء كما يريد له هواه. ثم تنزل السورة على هذا الوهم نزول الحقيقة التي لا تستأذن، فتبدأ بمشهدٍ لا يكاد البصر يدركه، ولكن القلب يرتجف من ضلاله: قوى غيبية تنزع، وتنشط، وتسبح، وتسبق، وتدبر؛ وكأن الوجود الذي يراه الإنسان ساكناً مألوفاً يخفي وراء ستاره حركةً هائلة، تتفدّ أمر الله في دقة لا يعترها تردد، وفي طاعة لا يتسرّب إليها عصيان.

إنها سورة الانتزاع الكبير: انتزاع الروح من مألوف الجسد، وانتزاع الإنسان من وهم الخلود، وانتزاع التاريخ من قبضة الطغاة، وانتزاع القلب من أسر الدنيا، وانتزاع الحقيقة من بين ركام الإنكار. وكل ما في السورة يتحرك في هذا الاتجاه؛ فالملائكة تنزع، والرافعة ترتجف، والرادفة تتبع، والقلوب تضطرب، والأبصار تخشع، وموسى عليه السلام يمضي إلى الطاغية ليزعزع بناء الاستعلاء من جذوره، والأرض تُدعى، والجبال تُرسى، ثم تأتي الطامة الكبرى فتنتزع عن الوجود نظامه القديم، وعن الإنسان أعذاره، وعن الحياة أُنعمتها جميعاً.

ومن هنا لا تُقرأ السورة بوصفها مجموعة مشاهد متفرقة: قَسَمًا بالملائكة، ثم بعثًا، ثم قصة موسى وفرعون، ثم دلائل الخلق، ثم مشهد القيامة؛ بل تُقرأ بوصفها بناءً واحدًا محكمًا، تتحرك أجزاءه حول سؤال المصير: ما الذي يصنعه الإنسان حين ينسى أنه راجع إلى الله؟ وما الذي يحدث للروح حين تؤمن بالدنيا أكثر مما تؤمن بالآخرة؟ وكيف يتحول الاستغراق في العاجلة إلى طغيان، ثم يتحول الطغيان إلى استعلاء، حتى يبلغ صاحبه أن يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾؟ ثم كيف تسترد الآخرة للوجود ميزانه، ولحقيقة سلطانها، وللإنسان حجمه الذي حاول أن يتجاوزه؟

ستقوم هذه القراءة على أن التدبر ليس إطلاقًا للخيال بعيدًا عن دلالة القرآن، ولا تهميلًا للآيات ما لا تحتمل، وإنما هو إنصاتٌ طويل إلى نظمها، وسياقها، وحركة ألفاظها، وصلاتها بما قبلها وما بعدها، ثم عبورٌ من المعنى الظاهر الثابت إلى ما يفتح في القلب من بصيرة، وما يقيم في العقل من ميزان، وما يبعث في الحياة من مراجعة. فالتدبر الحق لا يستبدل التفسير، بل يبدأ منه؛ ولا ينزع النص سلطانه، بل يقف بين يديه متعلبًا؛ ولا يجعل القارئ مركز القرآن، بل يعيد القرآن إلى مركز القلب حتى يرى الإنسان نفسه والعالم من خلال هدايته.

وستقف عند ألفاظ السورة وقفاتٍ تكشف عن طاقتها التصويرية والنفسية؛ فالفارق بين النازعات والناشطات ليس فرقًا معجميًا باردًا، بل اختلاف في هيئة الخروج وشدته؛ والراجفة ليست خبرًا عن اضطراب كوني فحسب، بل لفظة تحمل الراجفة في جرسها؛ والحافرة ليست مجرد اسم للعودة، بل صورة تهكمية نقلها القرآن عن منكري البعث وهم يستبعدون أن يُردّوا إلى حياتهم الأولى؛ والطامة ليست حادثةً كبيرة بين الحوادث، بل حقيقة تعلو على كل ما كان يملأ النفس حتى يصغر عند حضورها كل عظيم سواها.

وسوف نقرأ قصة موسى وفرعون في موضعها من السورة لا باعتبارها استطراداً تاريخياً، بل باعتبارها البرهان الإنساني على ما يصنعه نسيان الآخرة. وفرعون لم يبدأ قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ في اللحظة التي نطق فيها بهذه الكلمات، وإنما بدأه يوم تجاوز حدّه الأول، ثم أصرّ على خطوته الثانية، ثم طغى، ثم كذّب، ثم عصى، ثم أدبر يسعى، ثم حشر فنادى. إن الطغيان سلّم يصعده المرء درجةً درجةً، حتى يقف في أعلاه ولا يعود يرى فوقه أحداً، وهناك تأتي الضربة التي تعيده إلى الحقيقة، ولكن بعد فوات زمن الاختيار: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾.

وسنقف كذلك أمام سؤال السورة الباهر: ﴿أَلَمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ﴾؛ ذلك السؤال الذي لا ينتظر جواباً لفظياً، لأن السماء المرفوعة، والليل المغطّي، والضحي المستخرج من قلب الظلمة، والأرض المدحوة، والماء والمرعى، والجبال الراسية، كلّها تجيب قبل أن ينطق الإنسان. فالذي رأى آثار القدرة تحيط به من كل جانب، ثم استبعد البعث، لم تكن مشكلته نقصاً في البرهان، بل اختلالاً في النظر؛ إذ آمن بما ألفه، وأنكر ما أخبر به، مع أن القدرة التي أنشأت الأول لا يعجزها أن تعيده.

ومع اقتراب السورة من خاتمتها، ينقسم المصير إلى طريقين لا ثالث لهما: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ ﴿وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، و﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَبَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾. وهنا تبلغ السورة قلب رسالتها؛ فالمسألة ليست أن يمتلك الإنسان الدنيا أو يزهدها في أسبابها، وإنما أن يؤثرها، أي أن يجعلها المقدّمة عند التعارض، والحاكمة عند الاختيار، والغاية التي تُدبج لأجلها القيم والعهود والضمائر. وفي الجهة الأخرى لا تصنع النجاة أمنيةً عابرة، بل يصنعها خوف المقام، ذلك الوعي العميق بأن العبد سيقف بين يدي ربّه، ثم المجاهدة العملية التي تترجم هذا الوعي إلى نهْيٍ للنفس عن هواها.

إن النفس لا تهلك لأنها عرفت الهوى، فالهوى جزء من ابتلائها، وإنما تهلك حين تمنحه حق القيادة، فيصير هو الذي يرى عنها، ويختار لها، ويزن قبيحها، ويمنح رغباتها أسماء الفضائل. ولهذا لم تقل الآية: ومن لم يكن له هوى، فهذا مقام لا يكون للبشر، بل قالت: ﴿وَمَنَّى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾؛ أي إن النجاة تولد من داخل المعركة، وإن الإنسان الصالح ليس كائناً بلا رغبات، بل عبدٌ عرف موضع الرغبة من أمر الله، فلم يسمح لها أن تجلس على عرش القلب.

ثم تُختم السورة بالسؤال عن الساعة: متى مرساها؟ كأن الإنسان يريد أن يحول الحقيقة التي تطالبه بالاستعداد إلى معلومة تشبع فضوله. لكن القرآن يصرفه من توقيت القيامة إلى وظيفتها، ومن سؤال: متى؟ إلى سؤال: ماذا أعددت؟ فعلم الساعة عند الله، ومهمة الرسول الإنذار، وانتفاع الإنذار لمن يخشى. وحين تقوم، تنكشف الدنيا كلها في ذاكرة أهلها حتى تبدو كعشية أو ضحاها؛ عمرٌ طويل ملأوه بالخصومات والمخاوف والمطامع، فإذا هو عند انكشاف الأبد طرفٌ قصير من نهار.

وعلى هذا الأساس سيجيء هذا الكتاب رحلةً في طبقات السورة: من حركة الملائكة الخفية إلى رجفة الكون الظاهرة، ومن القلوب الواجفة إلى العظام النخرة، ومن وادي طوى المقدس إلى صرخة الطغيان، ومن بناء السماء إلى دحو الأرض، ومن الطامة التي تكشف الأعمال إلى النفس التي تقف أمام هواها، ومن سؤال التوقيت إلى يقين اللقاء. وسنحاول في كل فصل أن نجتمع بين بيان الآية وروحها، وبين بنيتها القرآنية وأثرها الإنساني، وبين مشهدها الأخروي وانعكاسه على ضمير الإنسان في هذه الحياة.

فهذه السورة لا تريد أن نخبرنا كيف يموت الناس فقط، بل كيف ينبغي لهم أن يعيشوا قبل أن يموتوا؛ ولا تريد أن تصف لنا القيامة وصفاً منفصلاً عن الحاضر، بل تريد أن تدخل نور القيامة إلى اختياراتنا الآن؛ لأن من أبصر النهاية تغيرت عنده قيمة الأشياء في أول الطريق، ومن سمع في قلبه صوت الراجفة لم تعد ضوضاء الدنيا قادرةً على تخديره، ومن عرف أنه سيقف يوماً أمام ما قدّمت يداه لم يسمح لهواه أن يكتب وحده قصة عمره.

سنقرأ سورة النازعات إذن كما لو أنها توقظ فينا الحاسة التي أضعفتها الألفة: حاسة المصير. سنصغي إليها حتى نرى في كل قوة أرضية ضعفها المستتر، وفي كل طاغية نهايته الكامنة، وفي كل شهوة حدّها، وفي كل مساءٍ ينقضي صورةً مصغرةً لانقضاء العالم. وسنسير معها حتى تبلغ بنا تلك اللحظة التي لا يعود فيها السؤال: متى تقوم القيامة؟ بل: هل قام في القلب من اليقظة ما يجعلنا مستعدين لها؟

الفصل الأول

الْقَسْمُ بِالْحَرَكَةِ الْغَيْبِيَّةِ

حين يبدأ المصير من وراء الحجاب

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿وَالسَّاجِدَاتِ سَجًّا﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾

تبدأ سورة النازعات قبل أن يبدأ المشهد المرئي، وتأخذ القلب إلى منطقة لا تبلغها العين، ولكن آثارها تبلغ الإنسان كله؛ إلى عالم الغيب حين يتحرك بأمر الله، وإلى الملائكة وهي تمضي في وظائفها لا يثقلها تردد، ولا يعوقها هوى، ولا يختلط عليها وجه التكليف. هناك، وراء الحجاب الذي يفصل الحس عن الغيب، تجري أوامر الله في الكون، وتنتهي آجال، وتقبض أرواح، وتُفتح للإنسان أولى أبواب الحقيقة التي ظل يؤجل النظر إليها طوال حياته. وقد تنوعت أقوال المفسرين في المراد بهذه الأوصاف، فقليل: هي الملائكة حين تنزع أرواح الكافرين نزاعاً شديداً، وتنشط أرواح المؤمنين برفق، ثم تسبح في تنفيذ أمر الله، فتسبق إلى ما أمرت به، وتدبر ما وكل الله إليها من شؤون خلقه. وقيل غير ذلك من الأقوال التي حملت الألفاظ على النجوم أو النفوس أو غيرها؛ غير أن سياق السورة، وانتقالها بعد هذا المطع مباشرة إلى الرجفة والبعث والقلوب الواجفة، يجعل حملها على الملائكة وقبض الأرواح من أظهر المعاني وأشدّها اتصالاً بالمقام، مع بقاء العلم بحقيقة مراد الله له سبحانه.

وليس المقصود من هذا المطلع أن يزودنا بتفاصيل غيبية تشبع الفضول، بل أن يقتلع من نفوسنا الوهم الذي نعيش به: أن ما نراه هو كل ما يوجد، وأن ما لا ندركه حواسنا لا سلطان له علينا. إن الإنسان يرى جسداً يسكن بعد حركة، ونبضاً يتوقف بعد اضطراب، وعينين تنطفئان بعد إبطار، ثم يقول: مات. أما السورة فتزجج طرفاً من الحجاب لتخبره أن وراء هذه اللحظة فعلاً غيبياً مهيئاً، وأن الموت ليس انطفاءً عشوائياً لمادة أنهكتها الأيام، بل انتقالٌ يقع بأمر الله، تنفذه ملائكة لا تتقدم على الأجل ولا تتأخر عنه.

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾

حين يُنزع الإنسان من عالمه

النزاع في أصل معناه إخراج الشيء بشدة من موضع استقر فيه، وكأن اللفظة وحدها تهدم طمأنينة الإنسان الزائفة إلى جسده؛ فهذا الجسد الذي ألفتة الروح، وعاشت من خلال حواسه، وخزنت في تضاريسه أفراحها وآلامها، سيأتي عليه وقت لا يعود منزلاً قابلاً للإقامة. وحين ينتهي الأجل، لا تستطيع الروح أن تثبت بعضو، ولا أن تستبقي نبضة، ولا أن تقول للزمن: أمهلني حتى أصلح ما أفسدت، أو أعتذر عما صنعت، أو أتمّ ما تركت ناقصاً.

أما قوله: ﴿غَرْقًا﴾ فيمنح النزاع معنى الاستقصاء والامتداد إلى الغاية، كأن النزاع يبلغ أعماق الجسد ومدخله، فلا يترك للروح تعلقاً بمكانها القديم. وعلى القول بأنه في أرواح الكافرين، يشهد المشهد؛ لأن الروح التي غرقت في الجسد، وأخلدت إلى الأرض، وبنت يقينها كله على الدنيا، لا تفارقها فراق المسافر الذي كان ينتظر الرحيل، بل فراق المقتلع من وطن توهم أنه خالد فيه. لقد التصقت بالدنيا حتى صار زرعها منها كشفاً مؤلماً لحقيقة

أنكرتها: أنها لم تكن تملك ما كانت تستمتع به، وأن الجسد لم يكن ذاتها الخالدة، وأن العمر لم يكن ملكاً شخصياً، بل أجلاً محدوداً ووديعةً مستردّة.

وهنا تظهر الصلة العميقة بين طريقة الحياة وطريقة استقبال الموت؛ فالذي جعل الدنيا مقامه النهائي، وربط هويته بما يجمعه فيها، يشعر عند الرحيل كأن وجوده كلّهُ يُنتزع منه، أما الذي عاش فيها عبيراً إلى الله، فإنه وإن وجد كرب الموت الذي كتبه الله على البشر، لا يكتشف عنده أن الطريق كان خدعة، بل يرى انكشاف الوعد الذي آمن به. ليست العبرة أن المؤمن لا يتألم، ولكنها أن ألمه لا يقع في فراغ، وأن الموت عنده ليس سقوطاً خارج المعنى، بل عبوراً إلى الحقيقة.

وفي كلمة ﴿النَّازِعَاتِ﴾ عنفٌ صوتي يناسب جلال اللحظة؛ فالنون والزاي والعين تتعاقب كأنها تحرك في السمع معنى الاجتذاب والإخراج. والقرآن لا يقدم الموت هنا في صورة هادئة تسمح للقلب بأن يمرّ عليها بلا اضطراب؛ لأن الغافل يحتاج أحياناً إلى كلمة تهزّه، لا إلى عبارة تداعب نومه. إن بعض الحقائق لا ينفع معها التلطيف الذي يُبقي الوهم حياً؛ فالموت ليس فكرة ثقافية تتأملها من بعيد، وإنما يدُ ستصل يوماً إلى كل واحد منا، وتفصل بينه وبين كل ما سَمّاه في الدنيا: «أنا».

كم من إنسان ملأ الأرض بصوته، ثم لم يستطع عند حلول أجله أن يستبقي زفرة! وكم من قويّ أحاط نفسه بالحراس، ولم يستطيعوا ردّ ملك الموت عنه! وكم من غنيّ كان يظن أن المال يوسّع له حدود الممكن، فلما جاء الأمر الإلهي اكتشف أن ثروته تستطيع شراء أشياء كثيرة، لكنها لا تستطيع شراء دقيقة واحدة بعد انقضاء الأجل! إن الموت لا يهزم الإنسان

لأنه أقوى من جسده فحسب، بل لأنه يكشف له أن كثيراً مما كان يعدّه قوة لم يكن قوة في ميزان المصير.

﴿وَالنَّاسِطَاتِ نَسْطًا﴾

الرحيل الذي يشبه انحلال القيد

بعد صورة النزاع تأتي صورة النشاط، والنشط يحمل معنى الحلّ والإخراج برفق وسهولة، كما تُحلّ العقدة أو يُخرج الشيء من عقاله. وعلى ما ذهب إليه كثير من المفسرين، فإنها الملائكة تنشط أرواح المؤمنين نشاطاً؛ فتخرج الروح من الجسد خروجاً أيسر، لأنها لم تكن سجيناً في مادته، ولا عابدةً لشهوته، ولا منكراً للعالم الذي تنتقل إليه.

وهذا لا يعني أن الموت يتحول للمؤمن إلى حادثة بلا رهبة، فقد قال الله لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾، وذاق الأنبياء سكراته، وإنما يعني أن ما وراء السكرة يختلف باختلاف الصلة بالله. قد تتشابه اللحظة في ظاهرها: جسد مسجى، وأهل يبكون، وصوت ينقطع؛ لكن الرحلة في باطنها ليست واحدة. روح تُنزع من كل ما أُحبّت لأنها لم تحب إلا الفاني، وروح تُحلّ من قيدها لتلقى من كانت تؤمن به، وترجوه، وتستعد للقاءه.

والفارق بين النزاع والنشط يفتح أمامنا باباً من أعمق أبواب التربية: إن أعمال الإنسان لا تبقى خلفه حين يموت، بل تُقدّمه لتصنع هيئة استقباله للموت. فالطاعة ليست حركة تنتهي عند أدائها، والمعصية ليست لذة تُتقضى عند انطفاء شهورها؛ كلاهما تشارك في تشكيل القلب الذي سيغادر الدنيا. ما نفعله اليوم يتحول، على مهل، إلى الصورة التي سنلقى بها الغد؛ فكل سجدة تفكّ عقدةً من عقد التعلّق بالأرض، وكل صدق يخفف من أثقال الروح، وكل

توبة تعيد ترتيب الوجهة، وكل ظلم يضيف إلى النفس قيداً، وكل شهوة محرمة تمدّ في باطنها جذراً يجعل اقتلاعها من الدنيا أشد.

إن المؤمن يتدرّب في حياته على النشاط قبل أن تنشط روحه من جسده؛ ينشط قلبه من أسر الحقد بالعفو، ومن أسر المال بالإنفاق، ومن أسر المدح بالإخلاص، ومن أسر الهوى بالمجاهدة، ومن أسر الخلق بالتوكل على الله. وكلها تحرر من عبودية شيء، صار رحيله عنه أخف؛ لأن الموت لا ينتزع منه إلهاً خفياً كان يعبد، بل يخرجها من ممرّ ضيق إلى سعة الوعد الإلهي.

أما من جعل كل معنى في حياته مربوطاً بالأرض، فإنه لا يخاف الموت لأنه يجهل ما بعده فحسب، بل لأنه لا يعرف نفسه خارج ممتلكاته وألقابه وشهواته وعلاقاته. فإذا سقطت هذه الأشياء دفعة واحدة، لم يبق له من ذاته إلا ما كان يؤجّل بناءه: قلبه، وعمله، وصلته بالله. وهناك يدرك أن ما أنفق عمره في تزيينه قد ترك وراءه، وأن ما أهمله طوال عمره هو وحده الذي عبر معه.

﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾

طاعة لا يثقلها شيء

ثم تنتقل الحركة من النزاع والنشاط إلى السبح، والسبح حركة سهلة ممتدة سريعة، لا يبدو فيها ثقل العائق ولا مقاومة الطريق. وفي اللفظة انسيابٌ عجيب، كأن الملائكة بعد أداء ما أُمّرت به تنطلق في ملكوت الله انطلاقاً لا يحده ما يحده حركة البشر من مكان وزمان وضعف.

ولعل من أسرار هذا الانتقال أن الموت الذي يبدو لأهل الأرض نهايةً وسكوناً، هو في عالم الغيب بداية حركة. نحن نرى الميت وقد توقّف، ولكن السورة ترينا الملائكة تسبح؛ نرى الجسد وقد انقطع عن الدنيا، ولكن الروح قد دخلت أول منازل الآخرة؛ نرى غرفةً ضاقت بالحزن، بينما انفتح للراحل عالم لم يكن يراه. وما نسميه نهاية إنما هو نهاية علاقتنا المحسوسة به، لا نهاية وجوده.

وفي السبح صورة للطاعة الخالصة التي لا تملكأ. فالملائكة لا تتفاوض مع الأمر، ولا تسأل هواها إن كان يناسبها، ولا تؤخر واجباً حتى تنتهي رغبة عابرة؛ إنها تسبح في مراد الله كما يسبح الكوكب في مداره، فلا يكون تمام حركتها إلا بلزومها أمر ربها. أما الإنسان، فقد مُنح إرادة يبتلى بها، ولذلك قد يعرف الطريق ثم يبطئ عنه، ويسمع النداء ثم يثقله التعلق، ويرى الحق ثم تمنعه نفسه من الانقياد.

كأن السورة، وهي تعرض هذه الحركة الملائكية المتدفقة، تضع بطن الإنسان الأخلاقي أمامه. كم يسرع إلى ما تشتهي نفسه، ثم يتثاقل إذا ناداه الواجب! وكم يقطع مسافات طويلة وراء منفعة، ثم يجد الصلاة ثقيلة، والاعتذار شاقاً، وردّ المظلمة مؤجلاً! إنه قادر على السرعة، لكن وجهة السرعة تكشف مركز العبادة في قلبه، فالمرء يخفّ إلى ما يعظمه، ويثقل عما لا يمنحه مكانته الحقيقية.

ليست العبرة إذن بكثرة الحركة، فقد يكون الإنسان بالغ النشاط في طريق يبعده عن الله، وإنما العبرة أن تكون حركته في الاتجاه الصحيح. فكم من ساجد لم يزدد بسعيه إلا بعداً، وكم من منشغل امتلاً يومه وفرغ عمره، وكم من إنسان ربح أشياء كثيرة في الطريق لكنه خسر

الوجهة! إن السابحات تعلم القلب أن قيمة السرعة مستمدة من الأمر الذي تُبذل فيه، وأن الحركة لا تصبح عبادة إلا حين تنتظم في مراد الله.

﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾

حين تكون المبادرة صورةً من صور العبودية

لم تقل الآية: والسابقات، بل جاءت بالفاء: ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾، وكأن السبح يفضي إلى السبق، والطاعة المنطلقة ثمر سرعة الاستجابة. فالملائكة تسبق إلى تنفيذ ما أمر الله، لا ينازع بعضها بعضاً طلباً لمجد شخصي، ولا تتسابق لترى، بل لأن تمام العبودية ألا يُستقبل أمر الله بالفطور.

والسبق هنا يطهر مفهوم المنافسة من نزعة الاستعلاء. فالبشر كثيراً ما يتسابقون ليظهر أحدهم فوق الآخر، حتى يصبح نجاح المنافس في نظرهم نقصاً من قيمتهم، ويغدو التفوق صورة مهذبة من صور حب الغلبة. أما السبق في طريق الله فليس إقصاءً للآخرين، بل فتح للطريق أمامهم، ليس صاحبه طالباً أن يتأخر الناس، بل حريصاً على ألا يتأخر هو عن الحق. ومن هنا نفهم لماذا دعا القرآن إلى المسارعة والمسابقة في الخيرات؛ لأن العمر أقصر من أن يُستهلك في التردد، والفرص أضعف من أن تُؤجل دائماً، والقلب يتغير، والقدرة تفتقر، والباب المفتوح اليوم قد لا يبقى مفتوحاً غداً. كم من توبة قال صاحبها: سأبدأها حين تهدأ الحياة، فلم تهدأ الحياة ولم يبدأ! وكم من حق عرفه إنسان، لكنه ظل ينتظر لحظة مثالية ليقوله، حتى ذهبت اللحظة والحق معاً! وكم من خير كان يمكن أن يُصنع، غير أن صاحبه قتله بالتسويق، والتسويق ليس دائماً قراراً بترك العمل، بل قد يكون طريقة هادئة لضياعه.

إن السبق إلى الله ليس استعجالاً مضطرباً، بل وعي بقيمة الزمن. السابق لا يعمل بلا بصيرة، لكنه لا يجعل طلب الكمال ذريعةً لتعطيل الممكن، ولا يحوّل التريث إلى قناع للخوف، ولا يسمح لهواه أن يعيد جدولة الطاعة حتى نهاية العمر. إنه يعرف أن الطريق إلى الله لا يحتاج إلى أمنية كبيرة بقدر حاجته إلى خطوة صادقة تبدأ الآن.

﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾

الكون الذي لا يُترك للمصادفة

تنتهي سلسلة الأقسام بالتدبير: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾. والملائكة إنما تدبّر ما وُكِّلَ الله إليها بأمره وإذنه؛ فهي لا تملك من الأمر استقلالاً، ولا تنازع الله شيئاً من سلطانه، بل تنفّذ تدبيره الذي أحاط بالوجود علماً وقدرةً وحكمة. فالأمر لله أولاً وآخراً، والملائكة عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

وهذه الآية تُخرج الإنسان من وحشة التصور الذي يرى الكون متروكاً للفضى. ليس في الوجود حادثة شاردة عن علم الله، ولا روح تسقط من حسابه، ولا أجل يضيع بين المصادفات، ولا دمة تخفى عليه، ولا ظالم يفلت من قدرته وإن أمهله، ولا مظلوم يغيب عن عدله وإن تأخر إنصافه. وراء ازدحام الأحداث تدبير، ووراء ما لا نفهمه حكمة، ووراء الحركة كلها أمر واحد لا يتعثر ولا يُغلب.

غير أن الإيمان بالتدبير لا يعني أن كل ما يقع محبوبٌ لله من جهة الشرع؛ فالظلم ظلم، والمعصية معصية، والإنسان مسؤول عن اختياره، ولكنه يعني أن شيئاً لا يخرج عن ملك الله وقدره، وأن الشر لا يتحول إلى قوة مستقلة تنازع رب العالمين ملكه. قد يُهمل الطاغية، لكن إهماله ليس إهمالاً؛ وقد يمتد ليل المحنة، لكن امتداده لا يعني أن الفجر خرج من

سلطان الله؛ وقد يعجز العقل عن فهم موضع الحكمة، لكن العجز عن رؤيتها ليس برهاناً على غيابها.

وهنا يسكن قلب المؤمن من غير أن يخمد، ويطمئن من غير أن يتواكل؛ يعمل لأن الله أمره، ويثق لأن الله يدير، فلا يحمل نفسه عبء السيطرة على النتائج، ولا يتخذ التوكل ستاراً لتترك الأسباب. إن من أجمل توازنات الإيمان أن تبذل وسعك كاملاً، ثم تسلم قلبك كاملاً؛ أن تعمل كأنك مسؤول عن الخطوة، وتطمئن لأنك لست مسؤولاً عن الكون.

وقد يخطط الإنسان لشيء، ثم تجيء المقادير على غير ما يريد، فيظن لأول وهلة أن حياته خرجت من مسارها، مع أن ما خرج هو خطته المحدودة، لا تدبير الله المحيط. وقد يُغلق بابٌ ظل يطرقة طويلاً، فيحسب أن الإغلاق حرمان محض، ثم تكشف له الأيام أن الله كان ينقذه من طريق لو فُتح لابتلعه. وقد يؤخذ منه محبوب، فلا يرى في ساعة الفقد إلا الفراغ، ثم تنو في أعماقه، من خلال الألم، معرفة بالله لم تكن لتنب في أرض الرخاء.

وليس معنى ذلك أن كل جرح يفهم سريعاً، أو أن كل مصيبة تنكشف حكمتها في الدنيا؛ ففي الأقدار أسرار قد تبقى فوق إدراكنا حتى نلقى الله. لكن اليقين بالتدبير يمنع الألم من التحول إلى اعتراض، والحيرة من التحول إلى قطيعة، والسؤال من التحول إلى سوء ظن. للمؤمن أن يحزن، وأن يبكي، وأن يعترف بأنه لا يفهم، لكنه لا يتيه في كون بلا رب، ولا يقف أمام المصيبة كأنها قوة عمياء أخطأت طريقها إليه.

حركة المطلع ووحدة المصير

نتوالى ألفاظ المطلع في نسق متدرج: نزع، فنشط، فسبح، فسبق، فتدبير. إنها حركة لا تعرف السكون، وكأن السورة تريد منذ آياتها الأولى أن تنتشل القلب من جموده. فالغفلة

سكون داخلي، والقرآن يواجهها بحركة متدفقة؛ والإنسان يظن أن القيامة بعيدة، بينما جنود الله في حركة، والآجال تمضي، والأوامر تنفذ، وكل لحظة تقرّبه من الموعد الذي لا يعرفه.

وليس غريباً أن يبدأ الحديث عن القيامة بهذه الحركة؛ لأن الساعة ليست حادثة منفصلة ستقع فجأة من غير مقدمات، بل إن الوجود كله يسير إليها منذ خلقه الله. كل يوم ينقضي جزء من المسافة، وكل مولود يدخل الطريق الذي انتهت إليه أجيال قبله، وكل وفاة إعلان صامت أن الموكب لا يتوقف. نحن لا نقيم بجوار الزمن، بل يحملنا الزمن في داخله، ولا نتظر الآخرة واقفين، بل نسير إليها حتى ونحن نغفل عنها.

ثم إن هذه الأقسام الخمسة تردّ الإنسان إلى حجمه الحقيقي. فبينما يتوهم أنه مركز العالم، تكشف له السورة عن جنود لا يراهم، وحركة لا يدرك مداها، وتدير لا يملك مفاتيحه. إنه جزء صغير من ملك واسع، ولكنه جزء مكرّم بالتكليف، وخطورته ليست في حجمه، بل في أنه أُعطي قلباً يستطيع أن يعرف الله أو يبجده، وإرادةً تستطيع أن تتجه إليه أو تعرض عنه.

وهكذا لا يكون السؤال الذي يترّكه المطلع في النفس: من هم النازعات فحسب؟ بل: كيف ستكون حالنا حين يقع النزاع؟ وماذا صنعنا بالروح التي ستُسترد؟ وهل خففنا عنها علائق الأرض، أم أثقلناها حتى صار كل خيط يصلها بالدنيا قيداً يعسر فكاه؟ وهل نسيح في طاعة الله، ونسابق إلى مرضاته، ونطمئن إلى تديره، أم لا تزال حياتنا واقفة عند حدود المرئي، كأن الغيب لا يقترب منا في كل لحظة؟

إن أول ما تفعله سورة النازعات أنها تنزعنا نحن من سطح الحياة، ثم تأخذنا إلى باطن المصير. وقبل أن تهتز الأرض بالراجفة، تهزّ في القلب وهم الأمان؛ وقبل أن تصف

الأبصار الخاشعة، تطلب من بصيرتنا أن تتفتح؛ وقبل أن تعرض علينا الطامة الكبرى، ترينا أن الطريق إليها قد بدأ بالفعل، وأن العالم الغيبي لا ينتظر تصديقنا كي يتحرك.

ومن هذا المطلع المملوء بالحركة، سنتقلنا السورة إلى اللحظة التي تبلغ فيها الحركة ذروتها، حين لا تُنزع روح واحدة من جسد واحد، بل يُتزع الكون كله من نظامه المألوف، وتدق الراجفة أبواب العالم، ثم تتبعها الرادفة، فإذا القلوب التي عاشت آمنةً في غفلتها واجفة، وإذا الأبصار التي طالما ارتفعت بالاستعلاء خاشعة.

الفصل الثاني

الرَّاجِفَةُ وَالرَّادِفَةُ

حين يفقد العالم ثباته وتظهر حقيقة القلوب

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۖ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۖ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۖ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾

بعد ذلك المطلع الذي امتلأ بحركة الملائكة وهي تنزع وتنشط وتسبح وتسبق وتدبر بأمر الله، تفتح السورة على الحركة الكبرى التي لا تبقى العالم كما عرفه الإنسان: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾. وما بين الحركة الأولى وهذه الرجفة صلة عميقة؛ فالغيب الذي كان يعمل وراء الحجاب يظهر أثره الآن في صفحة الكون، والأمر الذي كانت الملائكة تنفذه يبلغ بالعالم نهايته الموعودة، فلا تعود الأرض أرضاً مستقرة، ولا الجبال أوتاداً ساكنة، ولا السماء سقفاً مألوفاً، ولا الزمن مجالاً مفتوحاً للتأجيل.

إنها الساعة التي يسقط فيها كل ما احتذى الإنسان بثباته. فقد عاش على أرض يطمئن إلى صلابتها، وتحت سماء يعتاد انتظامها، وبين جبال يتخذ من رسوخها مثلاً للقوة، ثم يأتي اليوم الذي ترتجف فيه الأشياء التي كان يضرب بها الأمثال في الثبات، فيدرك أن الاستقرار الذي ركن إليه لم يكن صادراً عن ذات الأشياء، وإنما كان رحمة أودعها الله فيها إلى أجل. فإذا انتهى الأجل، نزع الله عنها ما وهبها من السكون، فعادت المخلوقات كلها إلى إظهار فقرها الأول: لا تملك بقاءها، ولا تحفظ نظامها، ولا تؤخر لحظة فنائها.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾

انهيار وهم الثبات

الرجف حركة شديدة تضطرب معها الأشياء من أصولها، وليست مجرد اهتزاز عابر يبقى بعده البناء على حاله. وفي قوله: ﴿تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ قوةٌ تتضاعف فيها دلالة اللفظ، كأن الصوت نفسه يرجّ القلب قبل أن يكتمل المشهد في الخيال. وقد ذهب جمهور من المفسرين إلى أن الراجفة هي النفخة الأولى التي يصعق عندها من في السماوات ومن في الأرض، وتزلزل بها بنية العالم، فهي النفخة التي تنهي النظام القديم، وتطوي الصفحة التي كتب الإنسان فيها اختياراته.

وهنا تتحول القيامة من فكرة مؤجلة في الذهن إلى قوة تهدم مألوف الحس. فالإنسان قد يصدّق بالموت ما دام يراه يقع على الأفراد، لكنه يظل في أعماقه متكئاً على بقاء العالم من بعده؛ كأنه يقبل فناءه الشخصي ويستبعد فناء المسرح كله. تأتي الراجفة لتقول له: ليس الذي سيمضي أنت وحدك، بل الصورة التي عرفت بها الوجود كله؛ فلا المدينة باقية، ولا البيوت، ولا الأسواق، ولا الحدود، ولا الأسماء التي اقتتل الناس عليها، ولا الممالك التي ظن أصحابها أن التاريخ انتهى عند أبوابها.

كم من طاغية بنى سلطانه على الأرض كأنه يغرسه في الأبد، ولم يدرك أن الأرض نفسها سترجف! وكم من إنسان خسر دينه ليحصل على موضع صغير في عالم محكوم بالزوال! وكم من خصومة استنفدت قلوب أصحابها من أجل شيء لو أبصروا رجفة الساعة لرأوه أهون من أن يُبدّدوا في سبيله صفاء أرواحهم! إن استحضار القيامة لا يدفع الإنسان إلى احتقار الحياة، وإنما يعيد الأشياء إلى مقاديرها الصحيحة، فيستعمل الدنيا ولا يعبدوها، ويبني فيها

ولا يتوهم أن بناءه خالد، ويحبّ ما أباح الله له دون أن يجعل المحبوب الأرضي حجاباً بينه وبين الحق.

إن أعظم أوهام الإنسان ليس اعتقاده أنه لن يموت، فهو يعلم الموت نظرياً، بل اعتقاده العملي أن ما حوله ثابت إلى الحد الذي يسمح له بالتسويق. يقول في نفسه: سأعود لاحقاً، وسأعتر غداً، وسأصلح حين تستقر ظروفِي، وسأتوب بعد أن أفرغ من رغباتي؛ فيعامل المستقبل كأنه ملك محفوظ في خزائنه. لكن الراجفة تعلن أن الزمن ليس تعهداً قدّم للإنسان، وأن «لاحقاً» ليست أرضاً مضمونة الوصول، وأن الفرصة التي تمر قد تكون جزءاً من الحجة عليه إن تركها تعبر بلا استجابة.

وكل رجفة صغيرة في الدنيا تذكير بالرجفة الكبرى: مرض يزعرع ثقة الإنسان بجسده، وفقد يهدم ترتيباً ظنّه دائماً، وهزيمة تكشف ضعف قوة توهمها حصناً، وتحول مفاجئ ينقل المرء من حال إلى حال. ليست هذه الحوادث هي القيامة، ولكنها شقوق تظهر في جدار الوهم؛ تعلم الإنسان أن العافية ليست ذاتية، وأن اجتماع الأحباب ليس أبدياً، وأن النعم معلّقة بمشيئة واهبها، وأن القلب العاقل لا يبني يقينه النهائي على شيء يقبل الزوال.

غير أن الغافل قد يمر بالرجفات الجزئية ثم يعيد بناء الوهم نفسه؛ يخرج من المرض فيظن أن جسده عاد ملكه، وينجو من الخطر فيحسب النجاة دليلاً على أنه لا يُدرك، ويشيّع محبوباً إلى قبره ثم يعود من المقبرة إلى الحياة كأن الطريق الذي حمل صاحبه لن يحمله. ليست المشكلة في قلة المواعظ، بل في قدرة القلب على تحويل الموعظة المؤقتة إلى بصيرة مستقرة.

﴿تَبِعْهَا الرَّادِفَةُ﴾

لا فاصل يهرب إليه المنكر

ثم يقول الله تعالى: ﴿تَبِعْهَا الرَّادِفَةُ﴾، أي تتبع النفخة الأولى النفخة الثانية التي يُبعث بها الخلق من قبورهم. والردف هو ما جاء في إثر غيره، وفي التعبير إحساس بالتتابع المحتوم: حدث يتلوه حدث، ومرحلة تسلم الإنسان إلى مرحلة، فلا يجد منفذاً يهرب إليه، ولا زمناً ثالثاً يعود فيه إلى الدنيا ليستدرك ما فات.

الراجفة تهدم العالم، والرادفة تستخرج أهله؛ الأولى تنهي زمن العمل، والثانية تبدأ زمن الكشف والجزاء. وبينهما يمضي أمر الله في دقة لا تتعثر، كما مضت النازعات والناشطات والسابحات والسابقات والمدبرات. فما بدأ في أول السورة حركة غيبية منضبطة يبلغ هنا غايته: لا روح تنسى في قبرها، ولا جسد يضيع على القدرة التي أنشأته أول مرة، ولا إنسان يفلت لأنه توارى في تراب الأرض أو تفرقت أجزاؤه في جهاتها.

وهذه الرادفة تسقط الحيلة النفسية التي يتعامل بها كثير من الناس مع الموت؛ فقد يتصور المرء أن النهاية هي الغياب، وأن الموت يحو المسألة بدل أن ينقلها إلى الفصل الأخير منها. لكن الموت ليس مخرجاً من المسؤولية، والقبر ليس حفرة تسقط فيها الأعمال فتتلاشى، بل هو برزخ يعقب زمن الاختيار، ثم تأتي الرادفة فتبعث الإنسان حاملاً معه ما قدّم. إن اليد التي بليت لا تبطل أثر ما بطشت، واللسان الذي سكن لا يحو الكلمات التي أطلق، والقلب الذي توقف نبضه لا يسقط النيات التي أخفاها؛ لأن الأعمال لا تحفظ في أعضاء أصحابها، بل يحفظها الله الذي لا يضل ولا ينسى.

وإذا كانت الراجفة تكشف هشاشة الكون المخلوق، فإن الرادفة تكشف استحالة الهرب من الخالق. قد يستطيع الإنسان في الدنيا أن يغيّر موضعه، ويخفي أثره، ويورّر روايته، ويستعين بالسلطة على إسكات الشهود؛ لكنه في البعث لا يملك أن يبقى في قبره حين يدعى،

ولا أن يستبدل نفسه بنفس أخرى، ولا أن يحمل أحداً تبعة ما فعل. إنها فردية اللقاء بعد ازدحام الحياة؛ يخرج الناس جميعاً، ولكن كل واحد يخرج إلى حسابه الخاص.

وفي ثابغ الراجفة والرادفة رسالة إلى النفس التي تفصل دائماً بين الفعل ونتيجته. نحن نرى المعصية لحظةً وتنقضي، ولا نرى ما يتبعها، ونرى الظلم فعلاً يقع ثم يعود الظالم إلى بيته آمناً، فتتوهم أن الصفحة أُغلقت. لكن سنة الله أن للأفعال روادف؛ قد يتأخر بعضها في الدنيا، وقد يُدخر كله للآخرة، غير أن شيئاً لا يبقى بلا أثر. للكلمة رادفة في قلب من سمعها، وللظلم رادفة في صحيفة صاحبه، وللخير رادفة في ميزان فاعله، وللعمر كله رادفة هي يوم الحساب.

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾

الحقيقة التي تبلغ مركز الإنسان

بعد رجفة الكون، تنتقل السورة إلى رجفة الإنسان: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾. وكأن الراجفة الخارجية تجد صداها في الداخل؛ يهتز العالم، فتهتز القلوب التي لم تستعد للقاء الله. والوجيف اضطراب تتسارع معه الحركة من شدة الخوف، فلا يملك الإنسان أن يسكن قلبه بالمحجج التي كان يسكنها في الدنيا.

إن اختيار القلب في هذا الموضع بالغ الدلالة؛ لأن القلب كان مركز الغفلة، وهو الآن مركز الفزع. فيه نشأ التكذيب قبل أن ينطق به اللسان، وفيه استقر حب الدنيا قبل أن يتحول إلى سلوك، وفيه اختبأ الكبر الذي منع صاحبه من الخضوع للحق. فلما جاء يوم القيامة، لم يبدأ الجزء من القشرة الخارجية، بل ظهر الاضطراب في الموضع الذي خرجت منه الاختيارات.

وفي الدنيا يستطيع الإنسان أن يخفي قلبه؛ قد يتسم وهو يرتجف، ويعلن الثبات وهو ينهار من الداخل، ويرتدي لغة اليقين بينما تمزقه الشكوك، ويظهر البراءة وقد استقرت الخيانة في أعماقه. أما يوم القيامة فتسقط المسافة بين الباطن والظاهر؛ يصبح القلب المدعور حقيقةً معلنة، ولا تعود الأقنعة قادرة على أداء وظيفتها القديمة.

وجاءت الآية بالتنكير: ﴿قُلُوبٌ﴾، وكأنها تعرض قلوباً لا يكاد أصحابها يذكرون من شدة ما استولى عليهم الفزع؛ أو كأنها توزع المشهد في الجمع الهائل: قلوب هنا وهناك، متسارعة مضطربة، وقد فقد كل إنسان ما كان يعرف به نفسه في الدنيا، ولم يبق إلا حقيقة موقفه من الله. لم تقتل: الناس واجفون، لأن التعبير بالقلب يجعل الرهبة نافذة إلى أعمق موضع في الإنسان.

وهنا يظهر الفارق بين الخوف في الدنيا والخوف في الآخرة. خوف الدنيا، إذا كان من مقام الله، باب للنجاة؛ يردع اليد قبل أن تظلم، ويوقظ الضمير قبل أن يبرر، ويعيد النفس إذا أوشكت أن تنقاد للهوى. أما خوف الآخرة بعد انقطاع العمل فهو انكشاف بلا قدرة على التغيير. من خاف اليوم أمن بإذن الله غداً، ومن صنع لنفسه أمناً كاذباً اليوم قد يلقي غداً خوفاً لا يستطيع دفعه.

وليس خوف الله الذي تنشئه السورة رعباً يقطع العبد عن الرجاء، بل هيبة تردّه إلى الاستقامة. فالخوف الذي يدفع إلى اليأس ليس هداية قرآنية؛ وإنما الخوف القرآني يفتح باب التوبة ما دام الإنسان في زمن العمل، ويقول له: ما دمت تسمع وصف القلوب الواجهة وقلبك ما يزال ينبض، فقد مُنحت فرصة ألا تكون منها. إن مشاهد الوعيد ليست إعلاناً بأن الطريق أغلق، بل نداءً مبكر كي لا نصل إلى موضع لا ينفع فيه الندم.

﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾

سقوط النظرة المتعالية

تتحرك السورة من القلب إلى البصر: ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾. فالداخل واجف، والخارج خاشع، وقد انتقلت حقيقة الخوف من أعماق النفس إلى ملاحج الوجه. والخشوع هنا ذل وانخفاض وانكسار؛ فلا تستطيع الأبصار أن ترتفع، لأن كل ما كان يرفعها كذباً قد سقط.

كم كانت أبصارُ في الدنيا تنظر إلى الناس من علٍ، لا لأنها أبصرت قيمة حقيقية في أصحابها، بل لأنها استندت إلى مال أو نسب أو سلطة أو جمهور! وكم من عين مرّت على الضعيف فلم تره، وعلى المظلوم فلم تردمعه، وعلى آيات الله فلم تعتبر! فإذا جاءت القيامة خشعت الأبصار التي لم تخشع للحق من قبل، لكن الخشوع يومئذ لم يعد عبادةً اختيارية، بل صار أثراً قهرياً لانكشاف الجلال والحساب.

إن البصر في القرآن ليس آلة محايدة دائماً؛ فقد يكون طريقاً إلى الاعتبار، وقد يكون خادماً للشهوة، وقد يرى الآية ثم لا يعبر منها إلى معناها. ولذلك قال الله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾. فحين يعمي القلب، تتحول العين إلى نافذة تستقبل الصور ولا تستخرج منها هداية، وترى الموت ولا ترى المصير، وترى السماء ولا ترى أثر القدرة، وترى تقلّب الدول ولا تدرك هشاشة الطغيان.

أما في ذلك اليوم، فإن البصر لا يملك أن ينتقي ما يراه؛ تُعرض الحقائق التي كان يفر منها، ويواجه الإنسان ما قدّمت يداه. فلا إعلان يصرف انتباهه، ولا متعة تغطي على قلقه، ولا

حجة تُنسيه نفسه، ولا ضجيج يحجب عنه صوت الحساب. هناك تنتهي قدرة الإنسان على إدارة نظره بعيداً عن الحقيقة.

والصلة بين القلب الواجف والبصر الخاشع تكشف وحدة الإنسان في القرآن؛ فالقلب ليس باطنًا منفصلاً عن الجوارح، والجوارح ليست آلات بريئة مما يختاره القلب. ما يستقر في الداخل يظهر أثره في الخارج، وما تكرر الجوارح يعود فينحت القلب. لذلك كانت تربية النظر جزءاً من تربية الروح، وكان غضّ البصر حفظاً لبصيرة الإنسان قبل أن يكون منعاً لحركة العين وحدها.

إن العين التي تتعلم الخشوع لله في الدنيا لا تنتظر القيامة حتى تنخفض؛ تخشع في الصلاة، وتلين عند آيات القرآن، وتكفّ عن تتبع العورات، ولا تستطيل على الخلق، وتتنظر إلى النعم بعين الشكر، وإلى المصائب بعين الاعتبار، وإلى العصاة بعين الرحمة التي لا تبرر المعصية ولا تتعالى على المبتلى بها. ذلك خشوع يرفع صاحبه؛ لأنه انكسار للحق، لا انكسار أمام الباطل.

من رجفة العالم إلى رجفة الضمير

ترسم الآيات الأربع طريقاً سريعاً من الكون إلى النفس: راجفة تهزّ الوجود، ورادفة تبعث الموتى، وقلوب تضطرب، وأبصار تنخفض. كأن كل شيء يعود في النهاية إلى السؤال الأخلاقي الذي عاش الإنسان يفر منه: ماذا صنعت حين كنت قادراً على الاختيار؟

فالقيامة ليست مشهداً كونياً غايته الإدهاش الجمالي، وإن كان تصويرها يبلغ ذروة البيان، وإنما هي حقيقة عدل؛ يهدم العالم القديم لأن زمن الابتلاء انتهى، ويُبعث الناس لأن

الأعمال لا بد أن تواجه أصحابها، وتوجل القلوب لأن الحقائق ظهرت، وتخضع الأبصار لأن الكبر لم يعد يجد أرضاً يقف عليها.

والقرآن حين ينقل هذه المشاهد إلى حاضرنا لا يريد منا انفعالاً عابراً ينتهي بانتهاء التلاوة؛ يريد أن تدخل الراجفة إلى بنية الوعي فتزلزل القيم الزائفة. أن ترجف فينا الثقة المفرطة بالدنيا، وأن يسقط وهم التأجيل، وأن يستيقظ القلب قبل أن يكون وجيفه خوفاً لا ينفع، وأن تخشع العين اختياراً قبل أن تخشع اضطراراً.

قد يحتاج الإنسان إلى رجفة رحيمة في حياته تعيد ترتيب داخله: آية يسمعها فيرى نفسه على حقيقتها، أو فقد يعرفه هشاشته، أو عزلة تسقط عنه ضيغ الناس، أو فشل يحطم الصنم الذي صنعه من نجاحه. وليست الرحمة دائماً يداً تربت على القلب؛ قد تكون أحياناً هزة تنقذه من نوم طويل. فما أقسى الطمأنينة إذا كانت تقود إلى الهلاك، وما أرحم الاضطراب إذا أعاد العبد إلى ربه!

ومن لطيف بناء السورة أن هذه الصور المهيبة لا تأتي بعد تفصيل طويل، بل تنقض على القلب في آيات قصيرة متتابعة، كأن سرعة الإيقاع جزء من المعنى. لا تمنح الغافل فسحة طويلة ليقم حواجزه النفسية؛ راجفة، فرادفة، فقلوب واجفة، فأبصار خاشعة. إن القيامة حين تبدأ لن تقع وفق الإيقاع البطيء الذي اعتاده الإنسان في تخطيطه، ولن تنتظر أن يُكَلَّ ترتيب شؤونه، بل تأتي بغتة، ويجد كل امرئ نفسه داخل الحقيقة التي ظل يظنها بعيدة.

وهنا يحق للقلب أن يسأل نفسه: ما الذي لواهترّ في حياتي الآن لاهترّ معه إيماني؟ أمالي؟ صورتي أمام الناس؟ مالي؟ شخص أحببته؟ سلطة أستند إليها؟ إن كل يقين ينهار بانهار

مخلوق هو يقين وُضع في غير موضعه. لا تطالبنا السورة أن نعيش بلا محبة ولا أمل، ولكنها تعلمنا أن نجعل الله الثابت الذي تستند إليه المتغيرات، لا أن نجعل المتغيرات أساساً ثم نطلب من قلوبنا ألا تنهار إذا زالت.

إن العالم سيرجف، ولكن من عرف رب العالمين لا تضيع وجهته؛ والأرض ستفقده قرارها، ولكن القلب الذي استقر على الإيمان يعلم إلى من المصير؛ والأبصار ستخشع، ولكن السعيد من خشعت بصيرته قبل ذلك اليوم، فرأى الدنيا في حجمها، والآخرة في بقائها، ونفسه في عبوديتها، وربّه في جلاله وكماله.

وبعد أن تعرض السورة هذه الحقيقة كما هي في علم الله، تنتقل إلى صوت آخر: صوت الإنسان حين يقابل اليقين بالسخرية، والقدرة الإلهية بحساباته الضيقة، والبعث بمنطق العظم النخر. هناك سنرى كيف يحاول الإنكار أن يحوّل المصير إلى مادة للتعجب، وكيف تختصر صيحة واحدة المسافة كلها بين القبور وساحة الحشر.

الفصل الثالث

الْحَافِرَةُ وَالْعِظَامُ النَّخْرَةُ

حين يسخر الإنسان من بعثه فترده صيحة واحدة

﴿يَقُولُونَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخْرَةً﴾ ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾

بعد أن عرضت السورة مشهد القيامة في حقيقته المزلزلة: راجفةً تتبعها رادفة، وقلوباً واجفة، وأبصاراً خاشعة، تعود إلى الدنيا لتكشف لنا كيف كان المنكرون يتلقون خبر ذلك اليوم. وهناك تتجلى واحدة من مفارقات النفس البشرية: إنها لا تستطيع أن تدفع الحقيقة بحجة، فتدفعها بالسخرية؛ ولا تملك برهاناً على استحالة البعث، فتجعل استبعادها النفسي بديلاً من البرهان؛ ولا تقول: إن الله عاجز عن إعادتنا تصريحاً، لكنها تصوغ سؤالها بطريقة يتخفى فيها الجحود وراء التعجب: ﴿إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾؟

إنهم لا يسألون سؤال الباحث الذي يريد أن يعرف، بل سؤال المنكر الذي اتخذ موقفه ثم راح يبحث عن صيغة لغوية تحميه من التبعة. وكم من سؤال لا يكون باباً إلى الحقيقة، بل جداراً يبنى في وجهها! فليس كل من قال: كيف؟ طالباً للفهم، ولا كل من قال: لماذا؟ باحثاً عن الحكمة؛ قد يكون السؤال أحياناً حيلةً مؤدبة لتأجيل الانقياد، وقد يصبح العقل نفسه موظفاً عند الهوى، يصنع له الاعتراضات التي تريحه من كلفة الإيمان.

﴿يَقُولُونَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَفْرَةِ﴾

استبعاد العودة إلى الحياة الأولى

الحفارة تُفهم على معنى الحالة الأولى؛ أي: أُنزِلُ بعد موتنا إلى الحياة التي كنا عليها؟ وأصل التعبير يستدعي صورة من يعود على أثره إلى الموضع الذي بدأ منه، كأن الحياة طريق غادره الإنسان بالموت، ثم يقال له إنه سيرجع إلى أول أمره حياً بعد أن صار تراباً.

ويكشف قولهم: ﴿إِنَّا لَمَرْدُودُونَ﴾ أنهم جعلوا ما ألفوه حداً لما يمكن أن يقع؛ فهم رأوا الإنسان يخرج من بطن أمه، ويكبر، ويشيخ، ثم يموت، ولم يروا بأعينهم ميتاً يعود في نظام الحياة المعتاد، فتوهموا أن المألوف قانونٌ يقيد القدرة الإلهية. وهذه آفة متكررة في التفكير البشري: أن يخلط الإنسان بين ما لم يعتده وما يستحيل وقوعه، وبين حدود خبرته وحدود قدرة الله.

إن العادة نعمة؛ فلولا انتظام الظواهر ما استطاع الإنسان أن يتعلم أو يزرع أو يبني أو يخطط، لكنها تتحول إلى حجاب حين يظن أن السنن التي عرفها تعمل بذاتها، أو أن الله الذي أجراها لا يملك أن ينقل الخلق إلى طور آخر. لقد ألف الإنسان أن تشرق الشمس من جهة معلومة، وأن تستقر الأرض، وأن يتدرج الجسد من القوة إلى الضعف، فصار مألوفه أقوى في إحساسه من الخبر الإلهي. غير أن القيامة ليست تكراراً ليوم من أيام الدنيا، بل انتقال من نظام أذن الله له أن ينتهي إلى نظام آخر شاء الله له أن يبدأ.

ولم يتأمل هؤلاء أن وجودهم الأول أشد إثارة للعجب من إعادتهم؛ فالذي كان عدماً ثم صار كائناً يسمع ويبصر ويفكر، كيف يجعل انتقاله من الموت إلى الحياة مستبعداً، ولا يرى انتقاله الأول من العدم إلى الوجود؟ إن الألفة لا تنقص من عظمة الخلق، لكنها تخدر

الإحساس بها. يولد الأطفال أمام الناس كل يوم، فيرون المعجزة حتى لا يعودوا يرونها؛ تنبت البذرة، وينزل الماء، وتحرك الأجنة في الظلمات، وتستيقظ الأرض بعد موتها، ثم يمر الإنسان بكل ذلك وكأنه أمر تملكه الطبيعة من دون خالق.

إن القرآن يعيد البصر إلى دهشته الصحيحة؛ لا ليفصله عن السنن، بل ليريه يد القدرة من خلالها. فالخلق الأول ليس حادثاً مضت وانتهت، بل برهان حاضر على إمكان الإعادة، وكل نبضة في الجسد شهادة بأن الحياة ليست ملكاً للمادة، وإنما هبة تتجدد بأمر الله.

﴿إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً﴾

حين يقيس الإنسان القدرة الإلهية على ضعفه

ينقلون اعتراضهم من مبدأ العودة إلى مادة الجسد: ﴿إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً﴾؟ والنخرة هي البالية المتفتتة التي أكلها الزمن، فغدت هشةً فارغة، وربما مرّ بها الهواء فأحدث فيها صوتاً. وقد اختاروا العظام لأنها أبقى أجزاء البدن، ثم تصوّروها بعد أن يبلغ بها البلى غايته، ليجعلوا الإعادة في أقصى صورة يمكن لعقولهم أن تستبدها.

لكن الخطأ الكامن في اعتراضهم أنهم لم يسألوا عن الفاعل قبل أن يسألوا عن الفعل. فالإمكان لا يُقاس بصورة المادة وحدها، بل بقدرة من يتصرف فيها. ما يستحيل على الإنسان قد يكون هيئاً على خالق الإنسان؛ وما يتفرق في جهات الأرض لا يغيب عن علم من خلق الأرض وما فيها؛ وما يعجز البشر عن جمعه لا يعجز من يقول للشيء كن فيكون. لقد نظروا إلى العظم النخر ونسوا رب العظم، وتأملوا شدة البلى ولم يتأملوا كمال القدرة، وقاسوا فعل الله على أفعالهم، فكأنهم يقولون: نحن لا نستطيع إعادة هذه العظام، فكيف

تعاد؟ وهذه هي جرثومة كثير من الإنكار: أن يجعل الإنسان عجزه مقياساً للوجود، وضيق علمه حداً للحقيقة. فإذا لم يدرك كيفية شيء توهم أنه ممتنع، مع أن الجهل بالكيفية لا يساوي العلم بالاستحالة.

وليس الجسد في ذاته هو المعضلة؛ فالمادة التي يتكون منها تبدلت مراراً أثناء الحياة، ومع ذلك ظل الإنسان هو نفسه من حيث مسؤوليته وشخصيته. والله الذي يحفظ هوية العبد خلال تحولات جسده في الدنيا قادر على أن يعيده بعد موته، فلا تختلط عنده الذوات، ولا تضعيع الأعمال، ولا تشابه عليه الأرواح. إن علمه لا يبحث عن الإنسان بين ذرات الكون كما نبحث نحن عن شيء مفقود، بل كل ذرة واقعة في إحاطته منذ كانت وإلى ما تصير إليه.

وفي وصف العظام بالنخرة صورة للنهاية التي يبلغها الجسد مهما بالغ الإنسان في خدمته. هذا الجسد الذي يفتن صاحبه بقوته أو جماله، ويقوده أحياناً إلى الكبر، سوف تنحلّ صلابته، ويذهب لونه، وتفتت عظامه. وليس في ذلك دعوة إلى إهماله؛ فهو أمانة وآلة للطاعة، وإنما الدعوة إلى ألا يتحول من خادم للروح إلى معبود لها. من جعل قيمة نفسه كلها في جسده عاش تحت رحمة شيء يتجه كل يوم نحو الضعف، ومن عرف أن كرامته في عبوديته لله أحسن إلى جسده من غير أن يسلمه عرش قلبه.

والمفارقة أن الجسد النخر الذي جعلوه دليلاً على استحالة البعث سيقوم نفسه شاهداً على إمكانه حين تأتي الزجرة. فما ظنوه نهاية البرهان على النفي سيتحول إلى مادة البرهان على القدرة؛ لأن الله لا يحتاج إلى أن تبقى العظام متماسكة حتى يعيدها، بل يكفي أن يريد.

﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾

الاعتراف المختبئ داخل السخرية

ثم يقولون: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾. أي إن كانت هناك عودة حقًا، فهي عودة يخسرون فيها. وقد قيل إنهم قالوها استهزاءً وإنكاراً، لكن العبارة، على الرغم من سخريتها، تحمل اعترافاً دفيناً: إنهم يعرفون في أعماقهم أن البعث، لو وقع، فلن يكون في صالحهم. وهذا يعني أن مشكلتهم لم تكن دائماً في غموض الدليل، بل في أنهم أدركوا ما يترتب على الإيمان به.

فالآخرة ليست معلومة محايدة تضاف إلى ثقافة الإنسان، وإنما حقيقة تعيد بناء حياته؛ من آمن بأنه سيبعث لم يعد قادراً على منح هواه سلطة مطلقة، ولم يعد الظلم صفقة ناجحة ولو حقق بها مكسباً قريباً، ولم تعد الشهوة حجة كافية، ولم يعد اختفاء الفعل عن الناس ضماناً للنجاة. لهذا قد يقاوم بعض الناس الإيمان لا لأنه غير مفهوم، بل لأنه مفهوم أكثر مما يريدون؛ فهم يدركون أن قبوله سيطالبهم بالتغيير.

قولهم: ﴿كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ يكشف أن القلب قد يعرف الحقيقة ثم يسخر منها ليتجنب سلطانها. فالضحك لا يدل دائماً على الطمأنينة، وقد يكون ستاراً رقيقاً فوق خوف عميق. وكم من ساحر من الآخرة لو خلا بنفسه في ليلة المرض، أو وقف أمام جنازة، أو سمع خبر موت مبالغ، انشغل في داخله سؤال حاول طويلاً أن يسكته! إن الفطرة لا تموت بسهولة، لكنها قد تُدفن تحت طبقات من الإلهاء والمكابرة.

وهم محقون في وصفها بالخسارة من حيث لا يريدون؛ فهي لهم خسارة حقاً، لا لأن البعث شرٌّ، بل لأنهم أرسلوا إليه أسباب الخسارة. فالآخرة لا تظلمهم، وإنما تكشف ما صنعوا؛

والميزان لا ينقص حسنتهم، وإنما يجد الصحيفة على الصورة التي كتبوها. إن الإنسان هو الذي يبني خسارته في الدنيا لبنَةً لبنَةً، ثم يراها في الآخرة بناءً كاملاً.

وهذا يحرر معنى الربح والخسارة من الحساب القريب؛ فقد يربح المرء مَالاً بمعصية ويخسر نفسه، وقد يخسر منفعةً عاجلةً لأنه أبى الظلم فيربح مقامه عند الله. الناس يحسبون نتائج الصفقة عند لحظة إغلاقها، أما القرآن فيمدّ الحساب إلى الآخرة، حيث تظهر الكلفة الحقيقية لكل اختيار. وما أكثر الأرباح التي ستتكشف خسائر، والخسائر التي ستظهر نجاتاً!

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾

سهولة البعث على القدرة التي لا يعجزها شيء

لا تدخل السورة مع المنكرين في جدل طويل، ولا تتبع استبعاداتهم بتفصيل مرهق، بل تجيب عن ضخامة ما تخيلوه بجملة قصيرة حاسمة: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾. إنما أداة حصر، وهي: إشارة إلى الواقعة، وزجرة: صيحة أمره شديدة، وواحدة: تنفي الحاجة إلى تكرار أو معالجة أو محاولة ثانية.

هم رأوا عظاماً نخرة، وتصوروا مسافات هائلة بين الموت والحياة، أما القدرة الإلهية فتختصر ذلك كله في زجرة واحدة. ليست الإعادة مشروعاً شاقاً يحتاج إلى زمن، ولا جمع الخلق أمراً تتوزع فيه القدرة أو يلحقها التعب؛ فما الخلق جميعاً بالنسبة إلى أمر الله إلا تخلق نفس واحدة.

وفي كلمة ﴿زَجْرَةٌ﴾ معنى الأمر الذي لا يملك المأمور أمامه تخلفاً. في الدنيا يستطيع الإنسان أن يسمع النداء ثم يعرض، وأن يدعى إلى الصلاة فيؤخر، وإلى التوبة فيسوِّف، وإلى الحق

فيجادل؛ لأنه يعيش في ميدان الاختيار. أما تلك الزجرة فليست تكليفاً يقبل الطاعة والمعصية، بل أمراً كونياً نافذاً، يخرج به الخلق جميعاً من قبورهم، من أطاع منهم في الدنيا ومن عصى.

وما أشد الفرق بين نداء يُسمع اليوم وزجرة تُسمع غداً! نداء اليوم رحمة؛ يمكن للعبد أن يستجيب فيكتب لنفسه النجاة. أما زجرة الغد فانتقال إلى الحساب، لا فرصة فيه لاستدراك. ومن الحكمة أن يستجيب الإنسان للصوت الخافت الذي يناديه في ضميره قبل أن يأتي الصوت الذي يشق القبور؛ أن ينهض لآية تذكّره، ولموعظة توقّظه، قبل أن ينهض رغباً عنه لرب العالمين.

والزجرة واحدة، لأن أمر الله لا يحتاج إلى دعم، وإرادته لا تواجه مقاومة. كل قوة خافت منها البشرية، وكل ملك ادعى لنفسه السلطان، وكل جيش ملأ الأرض ضجيجاً، سيقوم أصحابه جميعاً بزجرة واحدة، لا يحتفظ طاغية منهم بحرسه، ولا يفاوض غنيّ بماله، ولا يتأخر قوي لأنه لا يريد الحضور. هناك تتساوى الأجساد في الانقياد القهري بعد أن تفاوتت في الانقياد الاختياري.

وفي وصفها بالواحدة علاج لمرض يظن أن كثرة الخلق تصعب بعثهم. إن الكثرة تثقل القدرة البشرية؛ يحتاج المرء إلى وقت أطول كلما اتسع العمل، وإلى عون أكثر كلما تكاثرت المطلوب. أما الله سبحانه فلا تشغله كثرة عن أحد، ولا يضعف قدرته تعدد الخلائق؛ فالواحد والمليار أمام مشيئته لا يتفاوتان من جهة العجز والمشقة، لأنه لا يعجزه شيء.

﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾

الانتقال المفاجئ من القبور إلى أرض المحشر

ثم تأتي الفاء الفجائية: ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾. لا مسافة لغوية بين الزجرة وقيامهم، كما لا عائق في القدرة بين الأمر ووقوعه. والساهرة هي وجه الأرض أو الأرض المستوية التي يُحشر عليها الخلق؛ سُميت بذلك - فيما قيل - لأن من عليها يسهر ولا ينام، أو لأنها أرض ظاهرة مستوية.

إن التعبير لا يقول: فيقومون بعد زمن، أو يخرجون على مراحل، بل: ﴿فَإِذَا هُمْ﴾؛ وإذا المفاجأة تقذف بالمشهد كاملاً أمام النفس. كانوا عظاماً نخرة في حساب المنكر، فإذا هم قائمون على الساهرة، يستيقظون على عالم لا يشبه الدنيا، لكنهم يحملون ذكرتهم ومسؤوليتهم وأعمالهم.

هذه الفجائية جزء من حقيقة البعث النفسية؛ فالإنسان بعد موته لا يعيش إحساساً بزمن الانتظار كما يعيشه الحي، ثم يجد نفسه أمام القيامة كأن المسافة بين موته وبعثه طويت. تنتهي آخر صورة من الدنيا، ثم تفتح صورة المحشر. وكم ستبدو الحياة حينئذ قصيرة، مهما طالت سنواتها؛ لأنها صارت ذكرى محصورة بين ميلاد وموت، بينما يقف الإنسان على أعقاب الأبد.

وفوق الساهرة تنتهي الخصوصيات التي صنعت وهم الامتياز الأرضي. لا قصر يغلق أبوابه، ولا مكتب يمنح صاحبه الهيبة، ولا منصة يرفع منها صوته، ولا لباس يفصل الطبقات، ولا جمهور يصفق. أرض واحدة مكشوفة، وخلق مجموعون، ورب واحد يحكم بينهم. إن الساهرة هي الأرض التي تسقط عليها هندسة التفاوت الزائف، ويبقى تفاوت واحد له قيمته: تفاوت القلوب والأعمال.

ومن عاش في الدنيا معتمداً على السياجات سيشعر هناك بأقصى درجات الانكشاف؛ فقد كان يحتمي بالمال من الحاجة، وبالسلطة من المساءلة، وبالشهرة من النسيان، وبالجماعة من الوحدة، فإذا هو على الساهرة فرداً، لا يملكه إلا عمله ورحمة الله. أما من كان يستتر بالله في دنياه، ويعرف فقره إليه، فقد أعدّ قلبه للحظة تسقط فيها أستار المخلوقات كلها.

إنكار البعث هروبٌ من معنى المسؤولية

إذا جمعنا الآيات وجدناها تكشف بنية الإنكار كاملة: تعجب من العودة، واستبعاد بسبب بلى الجسد، وسخرية من الخسارة، ثم جواب قرآني يحطم الوهم كله بزجرة واحدة. وما يبدو نقاشاً حول قدرة الله هو، في عمقه، نقاش حول مسؤولية الإنسان. فالمشكلة ليست: هل يمكن أن تعود العظام؟ بقدر ما هي: هل سيعود صاحبها ليسأل عما فعل؟

إن الإيمان بالآخرة يمنح الفعل الإنساني وزناً لا تسمح المادية الصرفة بإدراكه؛ فالكلمة لا تموت بانطفاء صوتها، والظلم لا ينتهي بنجاة صاحبه من المحكمة، والإحسان لا يضيع لأن الناس نسوه. كل شيء محفوظ في علم الله، وكل اختيار ممتد إلى موعده. ولهذا كانت الآخرة حمايةً للمعنى من البعث، وللأخلاق من أن تكون مجرد اتفاق مؤقت، وللمظلوم من أن تكون نهايته الأخيرة هي القهر.

لو لم يكن بعث، لكان كثير من الظالمين قد خرجوا من التاريخ بلا حساب، ولكانت دماء كثيرة قد ابتلعها الأرض بلا إنصاف، ولكانت التضحيات التي لم يرها الناس قد ذهبت كأنها لم تكن. لكن الرادفة والساهرة تقولان إن القصة لم تنته؛ وما حسبه البشر فصلاً أخيراً ليس إلا توقفاً قبل ظهور الحكم الكامل.

ولذلك فإن البعث ليس خبراً مرعباً للمظلوم، بل هو اكتمال رجائه، وليس تهديداً للصادق، بل وعد بألا يضيع صدقه. الرهبة منه لا تلغي البشارة الكامنة فيه؛ إذ كيف يستوي من حفظ حدّ الله ومن انتهكه، ومن جبر قلباً ومن كسره، ومن عاش للحق ومن جعل الحق خادماً لمصلحته؟ إن العدل الذي لا يكتمل في الدنيا لا بد أن تكون له دار يكتمل فيها.

وهكذا تنهي السورة هذا المقطع بسرعة مدهشة: عظام نخرة، فزجة واحدة، فإذا اجمع بالساهرة. لقد اختصرت المسافة لكي يتعلم الإنسان ألا يقيس الآتي بطول انتظاره، ولا إمكان البعث بدرجة تحلل جسده، ولا قرب القيامة بعدد السنين التي مرّت. ما دام الأمر متعلقاً بالله، فإن «كيف» التي يرفعها العاجز لا تقف أمام «كن» التي يصدرها القادر.

غير أن السورة لا تترك القلب عند مشهد الجمع وحده؛ بل تنتقل به انتقالاً يبدو لأول وهلة بعيداً، وهو في الحقيقة شديد الاتصال بما سبق: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾. فبعد أن كشفت عن إنكار البعث، ستعرض نموذجاً لإنسان لم يكتف بإنكار المصير، بل بنى على نسيانه مشروع طغيان كاملاً؛ رجل رأى نفسه فوق البشر، ثم تجاوز بهم حتى ادعى لنفسه المقام الأعلى. وهناك، في الوادي المقدس، يبدأ اللقاء بين نبي لا يملك إلا أمر ربه، وطاغية يظن أنه يملك الأرض ومن عليها.

حين يستدعي الله رجلاً لمواجهة الطغيان

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿٢﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾

تنتقل سورة النازعات من بعث الأجساد بعد أن صارت عظاماً نخرة إلى قصة موسى وفرعون، وليس هذا انتقالاً من موضوع إلى موضوع، بل من صورة الإنكار في اللسان إلى صورته حين تتحول إلى نظام حياة. فالذين قالوا: ﴿إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَفَرَةِ﴾ أنكروا المصير، وفرعون جسّد النتيجة القصوى لهذا الإنكار، إذ إن القلب حين يُسقط من حسابه يوم الوقوف بين يدي الله لا يبقى محايداً، بل يبدأ في تضخيم ذاته حتى يرى قوته بلا حد، وشهوته بلا قيد، وسلطانه بلا مساءلة.

إن قصة موسى في هذا الموضع ليست استراحةً من مشاهد القيامة، بل شاهد تاريخي على أن من نسي النهاية طغى في البداية، وأن من لم يرفقه محكمة الآخرة قد يحاول أن يجعل من نفسه محكمة الأرض العليا. وما فرعون إلا صورة مكتملة للإنسان حين يملك القدرة ولا يملك الخشية، وحين يتسع نفوذه أسرع مما يتسع ضميره، وحين تتحول النعمة في يده من أمانة إلى دليل موهوم على الاستحقاق المطلق.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾

السؤال الذي يوقظ الذاكرة الأخلاقية

يفتح الله هذا المقطع بسؤال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾. وهو ليس سؤالاً عن مجرد وصول الخبر، فحديث موسى معروف في القرآن، وإنما هو استدعاء للانتباه، وتهيئة للقلب كي يستقبل القصة كأنها تأتيه أول مرة. فالأخبار العظيمة قد تفقد أثرها إذا تحولت إلى معلومات مألوقة، والقرآن يعيد إليها حرارة اللقاء بسؤال يهز السامع: هل بلغك هذا الحديث حقاً؟ هل وصل إلى سمعك فقط، أم تجاوز أذنك إلى موضع العبرة في قلبك؟

ثمة فرق بين أن تعرف القصة وأن يأتيك حديثها. المعرفة قد تكون تراكماً ذهنياً، أما الإتيان ففيه حركة واقترب ومواجهة؛ كأن قصة موسى تقطع مسافة التاريخ لتقف أمام الإنسان الحاضر، وتسأله عن موقعه منها. ففرعون ليس مومياء محفوظة في متحف الماضي، وموسى ليس اسماً محصوراً في زمن قديم؛ إنهما نموذجان يتجددان: طغيان يستند إلى القوة، ورسالة تستند إلى الحق؛ إنسان يطلب أن يُعبد، ونبي يردّ العبودية إلى الله.

والقرآن لا يقص التاريخ لينحنا لذة الوقوف فوق أنقاض السابقين، بل ليكشف لنا أن عناصر التاريخ تسكن النفس. ففي كل إنسان قابلية لشيء من الطغيان حين يتجاوز قدره، وقابلية لشيء من الموقف الموسوي حين ينحاز إلى الحق على الرغم من ضعفه. وقد يدين المرء فرعون البعيد، ثم يمارس في المساحة الصغيرة التي يملكها بعض منطقته؛ يرفض أن يُراجع، ويخلط كرامته بصحة رأيه، ويستعمل قدرته لإذلال من دونه، ويرى الاعتراف بالخطأ نقصاً في سلطانه.

إن قراءة قصة فرعون بوصفها قصة رجل بالغ الاستثنائية قد تمنح القارئ راحةً زائفة؛ لأنه يضع بينه وبينها مسافة آمنة. أما القراءة التدبيرية فتكشف البذرة قبل أن تصبح شجرة: تبدأ الفرعنة حين يظن الإنسان أن قدرته تمنحه حقاً زائداً، وأن ضعف الآخر يسلبه كرامته، وأن نجاحه دليل على رضا الله عن كل ما يفعله، وأن من يخالفه لا بد أن يكون عدواً للحق. وما القول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ إلا الكلمة الأخيرة في طريق بدأ بانحرافات بدت في أولها صغيرة.

﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾

قبل مواجهة الطاغية تأتي الصلة بالله

يبدأ مشهد المواجهة في موضع بعيد عن قصر فرعون وضجيج جنوده: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾. قبل أن يسمع موسى صوت الطاغية، سمع نداء ربّه، وقبل أن يقف أمام القوة الأرضية، وقف في حضرة التكليف الإلهي؛ وقبل أن يُطلب منه تغيير الواقع، أعاد الوحي بناء قلبه وعلاقته بمصدر القوة.

وهذا الترتيب من جوهر المنهج القرآني في صناعة الإنسان الذي يحمل الحق؛ فالمواجهات الكبرى لا تبدأ من المناير والساحات، بل من خلوة يتحدد فيها صاحب الرسالة: لمن قلبه؟ ومن أين يستمد يقينه؟ وما الذي يبقى له إذا سقطت الوسائل كلها؟ إن من لم يسمع نداء ربّه في أعماقه قد يبتلعه صخب الطغاة، ومن لم يعرف معنى العبودية قبل أن يدخل معركة التحرير قد ينتهي إلى صناعة طغيان جديد باسم مقاومة الطغيان القديم.

نسب النداء إلى الربوبية: ﴿نَادَاهُ رَبُّهُ﴾؛ وفي لفظ الرب معنى الرعاية والتربية والتدبير. فالذي يكلف موسى هو الذي ربّاه من قبل، وحفظه رضيعاً في التابوت، وأدخله قصر عدوه،

وأخرجه من مصر، وساقه إلى مدين، ثم أعاده في الموعد المقدّر. لم تكن حياة موسى أحداثاً مبعثرة، بل إعداداً طويلاً لهذه اللحظة؛ وكان لطف الله ينسج من الخوف نجاة، ومن الغربة خبرة، ومن الانكسار صلابة، ومن الطريق الموحش موعداً للوحي.

كم من مرحلة يظنها الإنسان انقطاعاً عن رسالته، وهي في الحقيقة إعداد لها! قد يُخرج من مكان أحبه، أو تتعطل خطته، أو يمر بسنوات لا يرى فيها ثمرة واضحة، ثم يكتشف أن الله كان يبني فيه ما لا يُبنى في الراحة. لم يذهب موسى إلى مدين عبثاً، ولم يقض تلك السنين خارج مصر نسياً؛ لقد خرج خائفاً يترقب، وعاد رسولاً يحمل كلمة الله إلى من كان يخافه.

فالتربية الإلهية لا تسير دائماً وفق الخريطة التي يرسمها الإنسان لنفسه. نحن نحب الطرق المستقيمة القصيرة، لكن الله قد يبلغ بالبعد غايته عبر منعطفات لا يفهمها لحظتها. وليس كل تأخير إبعاداً، ولا كل عزلة نسياناً، ولا كل انكسار نهاية؛ قد تكون يد الربوبية خفية وهي تعيد تشكيل القلب كي يقدر على حمل ما طلبه قبل أن يكون قادراً عليه.

والنداء تشریف وتكليف في وقت واحد؛ فالقرب من الله لا يعزل الإنسان عن آلام الناس، بل يرسله إليهم. لم يُنادَ موسى ليبقى في الوادي مستغرقاً في لذة المناجاة، وإنما ليخرج من قداسة الموضع إلى قسوة المواجهة. إن الروحانية القرآنية ليست هروباً من العالم، بل امتلاءً بالله يعيد صاحبه إلى العالم أصلب في الحق وأرحم بالخلق.

﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾

الجغرافيا التي شرفها الوحي

كان النداء ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾. الوادي قطعة من الأرض، لكنه اكتسب قداسته من تجلي أمر الله فيه؛ فالمكان لا يقدّس ذاته، وإنما يشرفه ما يختاره الله له من صلة بالوحي والعبادة. وقد تحوّل ذلك الوادي الهادئ إلى نقطة انعطاف في التاريخ: هناك كُلف راع غريب أن يواجه إمبراطورية، وبدأت كلمة ستزعزع عرشاً ظن صاحبه أنه لا يُمس.

إن بين هدوء الوادي وضجيج القصر مفارقة بليغة؛ فقصر فرعون يملك الجنود والذهب والأبواب والحرس، لكن القرار الذي سيحكم مصيره يصدر بعيداً عنه، في وادٍ لا يلتفت إليه ميزان القوة المادية. وهذا من سنن الله: قد تبدأ التحولات الكبرى من مواضع لا ترصدها عيون المتكبرين، ومن قلوب لا يحسب لها أهل السلطان حساباً. فالتاريخ في ظاهره يُكتب في القصور، لكنه في حقيقته قد يبدأ من محراب، أو كهف، أو وادٍ، أو قلب انفراد بالله فامتلاً باليقين.

ولم يكن موسى في تلك اللحظة قائد جيش، ولا صاحب مال، ولا ممثل دولة، بل عبداً ناداه ربه. ومع ذلك كان يحمل من القوة ما لا يحمله فرعون؛ لأن القوة ليست فقط ما تملكه اليد، بل الحق الذي يستند إليه القلب. قد يملك الباطل أدوات كثيرة، لكنه يبقى مبتوراً عن مصدر البقاء، وقد يبدو الحق أعزل، غير أنه متصل برب العالمين.

وتعلمنا قداسة «طوى» أن أخطر التحولات التي تقع للإنسان تبدأ في داخله قبل أن يراها الناس في عمله. لكل صاحب رسالة وادٍ معنويّ يخلو فيه ربه، وينزع عن قلبه نعال التعلق والخوف والرياء، ويتلقى تعريفه الجديد بنفسه. من هناك يخرج لا لأنه صار أقوى جسداً، بل لأنه عرف أن الخوف مخلوق، وأن الطاغية مخلوق، وأن الأمر كله لله.

﴿اِذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾

الإيمان الذي يتحول إلى حركة

جاء الأمر واضحاً مباشراً: ﴿اِذْهَبْ﴾. لم يكن المطلوب من موسى أن يكتفي بمعرفة فساد فرعون، ولا أن يحزن في عزله على أحوال المستضعفين، ولا أن يصوغ موقفاً داخلياً بريئاً يحفظ به طهارته الشخصية؛ كان عليه أن يذهب.

في «اذهب» انتقال من الشعور إلى المسؤولية، ومن الإيمان الساكن إلى الإيمان الذي يحمل صاحبه نحو موضع الخطر. إن معرفة الحق التي لا تنتج موقفاً قد تتحول إلى لون من الترف الروحي؛ يعرف الإنسان كثيراً، ويتأثر كثيراً، لكنه لا يضع شيئاً من نفسه في كفة ما يؤمن به. أما موسى فقد طُلب منه أن يحمل ما سمعه في الوادي إلى مركز السلطة التي تستعبد الناس.

والذهاب إلى فرعون ليس تهوراً بشرياً، بل استجابة لأمر الله، وبين الأمرين فرق عظيم. الشجاعة المؤمنة لا تبحث عن المخاطر لتثبت ذاتها، ولا تقتحمها بدافع الغضب المجرد، بل تتحرك ببصيرة، وتعرف أن الغاية ليست أن يظهر شجاعة حامل الرسالة، وإنما أن تبلغ الرسالة. ولهذا ظل موسى عبداً حتى وهو يقف أمام من ادعى الربوبية؛ لم تجعل المواجهة منه عاشقاً لصورة البطولة، بل بقي مفتقراً إلى ربه، يسأله شرح الصدر وتيسير الأمر.

لقد عرف موسى فرعون من قرب؛ عاش في بيئته، وشهد قوته، وخرج من مصر خائفاً. ولذلك لم يكن الأمر بالذهاب إلى مجهول لا يحمل في الذاكرة رهبة، بل عودة إلى الموضع الذي انكسر فيه سابقاً، ومواجهة مع قوة سبق أن دفعته إلى الرحيل. وهنا تبلغ التربية

الإلهية جمالها: فقد يعيد الله الإنسان إلى باب خوفه القديم، لا ليكرر هزيمته، بل ليبره كيف يصنع الإيمان من الموضع نفسه باباً للنصر.

كم من إنسان يظن أن شفاءه يكون بالألا يقترب أبداً مما أخافه، بينما قد يكون اكتمال الشفاء أن يعود إليه بقلب جديد، وحدود جديدة، ومعية بالله لم تكن له من قبل. عاد موسى إلى مصر، لكن الرجل العائد لم يكن هو الرجل الخارج؛ المكان واحد، وفرعون واحد، غير أن قلب موسى صار يحمل الوحي.

والأمر: ﴿اذْهَبْ﴾ يُسْقِطُ كذلك وهم انتظار اكتمال الوسائل. لو قاس موسى المهمة بحساب العدد والعتاد لما بدأت الرحلة؛ فكيف يقف فرد أمام ملك يملك جيشاً ودولةً وسحرةً وإعلاماً؟ لكن التكليف الإلهي لا يعني إهمال الأسباب، بل يعني ألا تتحول الأسباب إلى آلهة يُشترط رضاها قبل طاعة الله. يعمل المؤمن بما استطاع، لكنه يعرف أن النتائج لا تولد من الوسائل وحدها، وأن أضعف الأسباب في يد القدرة قد تهزم أقوى مظاهر الباطل.

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾

تسمية مركز الطغيان

لم يقل له: اذهب إلى قوم فرعون ابتداءً، بل: ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾؛ لأن الطغيان قد تركّز في رأس النظام الذي صنع لنفسه هالة تتجاوز بشريته. لقد كانت هناك أمة كاملة، وملأ وجنود وسحرة، لكن المنظومة اكتسبت اسم صاحبها؛ لأن إرادته صارت القانون الأعلى الذي تدور حوله بقية الإرادات.

ومع ذلك يسميه القرآن باسمه الأَرْضِي: فرعون. لا يصفه بما وصف به نفسه، ولا يعترف له بالربوبية التي ادعاه، بل يعيده اللفظ القرآني إلى حجمه: رجل من البشر استولى على الحكم ثم تجاوز حدّه. إن أول مقاومة للطغيان هي تحرير اللغة من دعايته؛ ألا نسمي الاستعباد حماية، ولا الخوف إجماعاً، ولا عبادة الفرد ولاءً، ولا إفساد الوعي حكمةً سياسية. حين يفرض الطاغية مفرداته، يكون قد احتل جزءاً من عقل ضحيته قبل أن يحتل أرضها.

لكن الذهاب إلى فرعون لم يكن لاستبدال احتقار باحتقار؛ فقد أمر الله موسى وهارون في موضع آخر أن يقولوا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى. إن الإسلام لا يحرر الإنسان من الخوف كي يدفعه إلى الفظاظ، ولا يمنحه الحق كي يسلب منه الرحمة. الطاغية مسؤول عن طغيانه، لكنه يظل مدعواً إلى التوبة ما دام بابها مفتوحاً. وحامل الرسالة لا يذهب ليشبع غضبه الشخصي، بل ليقم حجة الله ويفتح للضال طريق الرجوع.

وهذا من أشق مقامات الدعوة: أن تواجه الجريمة بوضوح من غير أن تتحول إلى نسخة من قسوة المجرم، وأن تخاطب الإنسان الكامن خلف الطغيان من غير أن تبيع حقيقة طغيانه، وأن تبقي باب الهداية مفتوحاً مع حماية المظلومين من بطشه. ليست الرحمة ضعفاً في تسمية الباطل، كما أن الصراحة ليست ترخيصاً لإهدار كرامة المخاطب.

﴿إِنَّهُ طَغَى﴾

التشخيص القرآني لمرض القوة

يلخص الله حال فرعون في كلمتين: ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾. والطغيان هو مجاوزة الحد، كما يطغى الماء حين يتجاوز مستواه فيغمر ما حوله. وفي هذا التصوير دقة بالغة؛ فالقوة في أصلها ليست مذمومة، والمملك ليس في ذاته ربوبية، والقدرة على الفعل قد تكون نعمة تُستخدم في العدل،

لكن الخطر يبدأ حين تتجاوز القوة الحد الذي رسمه الله، فتتحول من أداة إعمار إلى سيل يجرف الحقوق والكرامات.

الطغيان ليس حجم السلطة، بل طريقة النظر إليها. قد يملك الإنسان دولة ويظل عبداً لله، وقد لا يملك إلا بيته الصغير ثم يطغى على أهله. وقد يكون المرء ضعيفاً أمام من فوقه، فرعوناً على من تحته؛ يطلب لنفسه الإنصاف، لكنه لا يعطيه لغيره، ويكره الإهانة إذا وقعت عليه، ثم يراها أمراً طبيعياً إذا صدرت منه. إن فرعون التاريخ شخصية كبرى، لكن الفرعونية النفسية قد تختبئ في التفاصيل اليومية.

وتبدأ مجاوزة الحد حين ينسى الإنسان أن ما في يده عارية. فإذا ظن أن المال تابع من استحقاقه المحض، وأن المنصب اعتراف بقيمته المطلقة، وأن ذكاه يجعله فوق النقد، بدأ الحد الفاصل بين النعمة والطغيان يضعف في قلبه. ثم يتحول الامتنان إلى استعلاء، والمسؤولية إلى امتياز، والخدمة إلى سيطرة، حتى يصير وجود الآخرين عنده ملحقاً برغبته.

وما كان فرعون ليلغ قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ في خطوة واحدة؛ فقد سبقت الكلمة تربيةً طويلة للنفس على تجاوز الحدود. سكت عن أول ظلم، ثم احتاج إلى ظلم آخر لحماية الأول، ثم أحاط نفسه بمن يزينون له فعله، ثم صار النقد عنده خيانة، والاختلاف جريمة، والناس مادة لمشروعه. وهكذا ينمو الطغيان: لا يعيش بالقوة وحدها، بل بالتبرير، وبالملا الذين يحسنون تسمية الانحراف، وبالصامتين الذين يظنون أن السكوت يخرجهم من القصة.

إن قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾ تشخيص أخلاقي قبل أن يكون وصفاً سياسياً. فالقرآن لا ينبهر بضخامة الدولة الفرعونية، ولا بعدد جنودها، ولا بما شيدته من عمران؛ يختصر ذلك كله في

حكم واحد: تجاوز الحد. لأن الحضارات لا تُقاس بما ترفعه من حجارة فقط، بل بما تحفظه من كرامة الإنسان، والسلطان لا يزكو باتساع رقعته، بل بمقدار خضوعه للعدل.

والطغيان، في أعمق طبقاته، نزاع مع حقيقة العبودية. يريد الطاغية أن يكون أمره غير مردود، ورأيه غير مناقش، وذاته مصدر القيمة. إنه لا يكتفي بأن يطيعه الناس في القانون، بل يريد أن يسكن داخل تصوراتهم؛ أن يروا ما يراه، ويحبوا ما يحبه، ويكرهوا ما يكرهه. ومن هنا كانت رسالة موسى تحريراً للضمير قبل أن تكون تحريراً للأجساد؛ لأن العبد قد يخرج من السجن، ويبقى السجان مقيماً في خوفه الداخلي.

لماذا موسى؟ ولماذا فرعون؟

يقف في المشهد رجلان، لكن وراءهما رؤيتان كاملتان للوجود. موسى يسمع: ﴿نَادَاهُ رَبُّهُ﴾، فيعرف نفسه عبداً مرسلًا. وفرعون سيقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾، فيرى نفسه مركزاً للوجود. موسى يستمد قيمته من عبوديته، وفرعون يطلب قيمته من خضوع الآخرين له. موسى يحمل كلمة لا يملك تغييرها وفق مصلحته، وفرعون يريد أن تصبح مصلحته هي الكلمة التي نغير لأجلها الحقائق.

وحين يأمر الله موسى بالذهاب إلى فرعون، فإنه يضع العبودية الصافية في مواجهة التأله السياسي والنفسي؛ فالطغيان لا يهزمه طغيان مقابل، بل إنسان تحرر من عبودية نفسه أولاً. من كان أسيراً لشهرته يستطيع فرعون أن يشتريه بالمدح، ومن كان أسيراً لماله يستطيع أن يهدده بالحرمان، ومن كان أسيراً لحياته يستطيع أن يكتم فيه بالخوف؛ أما من ردّ نفسه إلى الله، فقد ضاقت المداخل التي ينفذ منها الطغيان إلى قلبه.

ولذلك بدأ إعداد موسى بالوادي المقدس، لا بالقصر؛ لأن المعركة في أصلها معركة مرجعيات. من هو الرب؟ ومن يملك الأمر؟ ولمن تكون الطاعة المطلقة؟ إذا استقر الجواب في القلب، استطاع الإنسان أن يقف أمام الباطل ولو كان وحده؛ وإذا اضطرب، فقد يخني للطاغية وإن كان في يده سلاح.

إن كل إصلاح حقيقي يبدأ من نداء يحرر المصلح من نفسه، ثم أمر يخرج به إلى الواقع، ثم تشخيص لا يجامل المرض: ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾. فلا يكفي أن نحب الحق في عزلتنا، ولا أن نكره الظلم في سرائرنا، بل لا بد أن تتحول المعرفة، وفق الاستطاعة والحكمة، إلى كلمة وموقف وعمل. وفي الوقت نفسه لا بد أن يبقى المصلح موصولاً بالوادي المقدس داخل قلبه، وإلا ابتلعت المعركة، وصار غضبه أشد حضوراً من رسالته.

لقد كان الطريق من طوى إلى فرعون طريقاً جغرافياً، لكنه في ميزان الروح انتقال من المناجاة إلى البلاغ، ومن التلقي إلى الأداء، ومن يقين القلب إلى امتحان الواقع. وسيكشف الفصل التالي أن الخطاب الذي حمّله موسى لم يبدأ بلعنة ولا تهديد، بل بسؤال يفتح باب التطهر: ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾. ففي قلب المواجهة مع أشد الطغيان يبقى باب الهداية مفتوحاً، وتظل الرسالة وديةً للغاية التي جاءت من أجلها: إنقاذ الإنسان حتى من الطاغية الذي صنعه داخل نفسه.

هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزْكِيَ؟

حين يطرق الهدى باب الطاغية

﴿قُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزْكِيَ﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾

بعد أن شخّص الوحي حال فرعون بالكلمة التي تكشف جوهر مرضه: ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾، لم يأمر الله موسى أن يبدأ بالإدانة، ولا أن يواجهه منذ اللحظة الأولى بماضيه المملّخ بالدماء، ولا أن يغلق في وجهه باب العودة؛ بل وضع على لسان نبيّه سؤالاً من أرق الأسئلة وأشدّها نفاذاً إلى النفس: ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزْكِيَ﴾؟

هكذا تقف الرحمة على باب الطغيان؛ لا تبرّر جرائمه، ولا تنكّر حقوق ضحاياه، لكنها لا تأس من إنسانه ما دام حياً قادراً على الاختيار. إن فرعون، على الرغم من استعلائه واستعباده الناس، لم يُحرّم من أن يُدعى إلى الله، ولم يُخاطب ابتداءً كما لو أن مصيره قد حُسم وهو ما يزال في دار التكليف. وهذا يكشف عن سعة الرحمة الإلهية؛ فالذي يعلم ما اقترفه فرعون، ويعلم ما سيختاره في النهاية، أرسل إليه مع ذلك رسولاً، وأراه آية، وفتح أمامه سبيل التزكية والخشية.

إن الهداية لا تقف عند حدود استحقاق البشر في تقديرنا؛ ولو كانت الدعوة لا تصل إلا إلى من نراهم أهلاً لها، لكان الدعاة هم الذين يوزعون الرحمة وفق أمرجتهم. لكن الله يرسل موسى إلى فرعون، ويعلمنا أن فساد المخاطب لا يعني حامل الحق من عدل الخطاب،

وأن وضوح الموقف من الجريمة لا يبيح التشقي بصاحبها، وأن الكلمة الهادية ينبغي أن تظل طاهرةً من أمراض النفس التي تزعم أنها تحاربها.

﴿قُلْ﴾

الكلمة التي تلتقى معناها من الله

تبدأ الآية بالفاء: ﴿قُلْ﴾؛ أي إن ذهاب موسى ليس انتقالًا جسديًا إلى القصر فحسب، بل حملٌ لكلمة محددة. فالرسول لا يذهب ليقول ما يمليه عليه غضبه، ولا ليخترع خطابًا يرضي خوفه أو يثبت شجاعته، وإنما يتكلم بما علمه الله. وفي هذا تربية عميقة لكل من يحمل معنى أو يدافع عن قضية: ليست صحة الغاية إذنًا مطلقًا في اختيار أي عبارة، فالحق يحتاج إلى لسان يليق به، وقد تفسد قسوة الأسلوب مقصدًا صحيحًا كما قد يفسد التنازل معنىً ثابتًا.

إن كلمة ﴿قُلْ﴾ تضع اللسان تحت العبودية. فالإنسان قد يضبط يده عن الظلم، لكنه يترك لسانه يتحرك بلا ميزان، ويظن أن انتسابه إلى الحق يجعل كل ما يقوله حقًا. غير أن موسى، وهو ذاهب إلى أعنى طاغية، لم يُعَفَ من أدب الرسالة؛ لأن الأخلاق لا تُختبر في خطاب من نخب فحسب، بل يظهر صدقها حين نخاطب من نرفض أفعاله.

وليس المقصود بالأدب تزيين الباطل أو إسقاط هيبة الحق، بل تنقية الكلمة من حظوظ النفس. فقد يقول الإنسان عبارةً صحيحة، لكنه يريد بها الانتصار لذاته أكثر مما يريد هداية الآخر، ويتخذ من الدعوة ستارًا ليشبع رغبة التفوق، ثم يتعجب حين لا تبلغ كلماته القلوب. وما كل كلمة قاسية قوة، ولا كل كلمة لينة ضعفًا؛ القوة الحقيقية أن تضع الكلمة في موضعها، فلا يمنعك خوف من قول الحق، ولا يدفعك غضب إلى تجاوز العدل.

﴿هَلْ لَكَ﴾

عرض يوقظ الإرادة ولا يلغي المسؤولية

لم يقل له: تزكّ، على ما في الأمر المباشر من جواز ووضوح، بل جاءه بهذا الاستفهام الرفيق: ﴿هَلْ لَكَ﴾؟ كأن موسى يعرض عليه نجاة تخصه، ويستدعي فيه بقية إرادة لم تبطلعها شهوة السلطان بعد: هل لك رغبة؟ هل بقي فيك موضع يستطيع أن يستجيب؟ هل تريد أن تخرج من هذا الظلام الذي صنعته حول نفسك؟

وفي هذه الصياغة احترام لمسؤولية الإنسان؛ فالهداية لا تُغرس في القلب بالقهر، والإيمان الذي يُنتزع تحت الإكراه ليس إيماناً. لقد أجبر فرعون الناس على الخضوع له، أما موسى فيدعوه إلى الله من خلال إرادة واعية. وهنا يظهر الفرق بين خطاب النبوة وخطاب الطغيان: الطاغية يقول للناس إن عليهم أن يصبحوا نسخاً من إرادته، والنبى يوقظ فيهم الإرادة التي تحررهم من العبودية لغير الله.

إن عبارة ﴿هَلْ لَكَ﴾ تحمل قرباً عجيباً، مع أن المسافة بين موسى وفرعون في الموقف شاسعة. لم يقل له: هل لك أن تحفظ عرشك؟ أو توسع ملكك؟ أو تحسن صورتك أمام الناس؟ بل يعرض عليه ما لم يكن أحد من حاشيته قادراً على منحه إياه: أن يستعيد إنسانيته من تحت ركام الألوهية الكاذبة.

كان الذين حول فرعون يخدمون صورته، أما موسى فجاء لينقذ روحه. كانوا يثبتونه فوق العرش، وهو يدعوه إلى النزول من وهم الربوبية حتى يرتفع في مقام العبودية. كانوا يقولون له ما يحفظ سلطانهم من خلال سلطانه، أما موسى فقال له ما قد يسلبه كبريائه لينقذه من النار. وكم من عدو في الظاهر يكون أصدق رحمة بالإنسان من أصدقاء يزيّون له هلاكه!

إن أخطر ما يفعله الاستبداد بصاحبه أنه يحرمه من الكلمة الناصحة؛ فالناس يرون سقوطه يقترب، لكنهم يخافون أن ينهوه، أو ينتفعون من عماءه، أو يظنون أن رضا الحاكم أثمن من نجاته. وهكذا يصبح القصر مكاناً مكتظاً بالأشخاص خالياً من الصدق. ثم يدخل موسى، الغرب الذي لا يطلب منصباً ولا يخشى خسارة امتياز، فيقول الكلمة التي كان ينبغي للملأ أن يقولوها منذ زمن: هل لك أن تتغير؟

﴿إِلَى أَنْ تَزْكَى﴾

المعركة الحقيقية داخل النفس

لم يقل موسى: هل لك إلى أن نتعلم فقط، أو أن نغير بعض سياساتك، أو أن نخفف شيئاً من ظلمك؛ بل قال: ﴿إِلَى أَنْ تَزْكَى﴾. لأن أزمة فرعون لم تكن خطأ إدارياً في جهاز الحكم، بل فساداً في مركز الإنسان؛ في نفسه التي تضخمت حتى ادعت ما ليس لها. والإصلاح الذي لا يبلغ هذا المركز قد يغير شكل الطغيان ويترك روحه حيّة.

والتزكية تجمع بين التطهير والنماء؛ تطهير النفس من الكبر والظلم والهوى، وتنتيها بالإيمان والخشية والعبودية. فهي ليست محمواً للشرف فحسب، بل بناء للخير الذي يملأ موضعه. لأن النفس إذا أفرغت من باطل ولم تُعمر بحق، عاد الباطل إليها في ثوب آخر.

كان فرعون يظن أن مقامه يكتمل بأن يعلو على الناس، فجاءه موسى ليخبره أن اكتماله يبدأ حين يطهر نفسه من شهوة العلو. كان يرى كثرة الخاضعين له دليلاً على عظمتهم، بينما كانت عبوديتهم تكشف مقدار عبوديته هو لنفسه. فالطاغية يبدو حراً لأنه يأمر الجميع، لكنه في باطنه عبد لشهوة السيطرة؛ لا يستطيع أن يحتمل كلمة تخالفه، ولا حقيقة تحدّه، ولا وجوداً لا يدور حوله.

تزكية فرعون كانت ستبدأ باعتراف صغير في لفظه، هائل في أثره: أنا عبد. لو استطاع أن يقولها قبله لانطفأت الألوهية الكاذبة، وتحررت معه أمة كاملة. غير أن النفس حين تعتاد الارتفاع المصطنع ترى الرجوع إلى حقيقتها سقوطاً، مع أنه النجاة بعينها. لقد خاف فرعون أن يخسر عرشه إن تزكى، ولم ير أن ما يُعرض عليه أعظم من العرش: أن يربح نفسه.

وهذا النداء ليس لفرعون وحده؛ فكل نفس تحتاج إلى أن تسمعه: هل لك إلى أن تزكى؟ هل لك أن تتخلص من الصورة التي صنعتها لنفسك وتعود إلى حقيقتك أمام الله؟ هل لك أن تنظف قلبك من حقد صار جزءاً من هويتك، ومن شهرة أدمتها، ومن خطأ تدافع عنه لأن الاعتراف به يؤلم كبرياءك؟

التزكية ليست زينة تضاف إلى شخصية مكتملة، بل عملية تحرير طويلة؛ أن تميز بين ذاتك وأهوائها، فلا تقول عن كل رغبة: هذه أنا، ولا عن كل غضب: هذه كرامتي، ولا عن كل انتصار للنفس: هذا دفاع عن الحق. فقد يختبئ فرعون صغير خلف كلمات كبيرة، وقد تندثر شهوة العلو بلباس الغيرة على المبادئ.

والإنسان لا يتزكى بمجرد رؤيته عيوب الآخرين. قد يصبح بارعاً في نقد الطغيان، وهو لا يحمل نقداً في بيته؛ ويفضح صناعة الأصنام السياسية، لكنه يصنع من نفسه صنماً أدبياً أو فكرياً؛ ويرفض احتكار الحاكم للحقيقة، ثم يحتكرها في مجلسه. إن التزكية تُدخل ميزان العدل إلى الداخل، وتجعل الإنسان يراقب البذور قبل أن تتحول إلى شجرة فرعونية.

من التزكية الفردية إلى عدل العالم

قد يبدو غريباً أن يدعى حاكم مستبد إلى تزكية نفسه، وكأن الأزمة عامة والحل فردي. لكن القرآن يكشف أن البنية الخارجية للطغيان تخرج من باطن لم يُرَكَّ. فالقرارات الجائرة

تبدأ من نفس جعلت مصالحها فوق الحقوق، والقهر يبدأ من قلب لم يتعلم الخشية، واستعباد المجتمع هو الامتداد الكبير لاستعباد الإنسان بقوة هواه.

ولذلك فإن التزكية ليست انعزاً عن قضايا العالم، بل أحد أصول إصلاحه. من لم يطهر نفسه من حب العلو قد يحمل راية التحرير ليصعد بها إلى عرش جديد؛ ومن لم يتطهر من الانتقام قد يحارب ظلماً ليؤسس ظلماً مضاداً؛ ومن لم يترك صلته بالمال قد يتحدث عن العدالة ما دام بعيداً عن خزائنها، فإذا ملكها أعاد إنتاج الفساد بأسماء جديدة.

غير أن اختزال الإصلاح كله في تزكية فردية صامتة خطأ مقابل؛ فوسى لم يدع إلى تزكية نفسه ثم البقاء في الوادي، بل أرسل لمواجهة فرعون وتحرير بني إسرائيل. إن المنهج القرآني يجمع بين صلاح القلب وإقامة العدل، فلا يبرر فساد الباطن بحماسة العمل العام، ولا يجعل العناية بالباطن ذريعة للسكوت عن الظلم. التزكية تمدّ الموقف بأخلاقه، والموقف يحمي التزكية من أن تصبح أنانيةً روحية.

﴿وَأَهْدِكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾

ليست الدعوة إلى موسى بل إلى الله

ثم قال: ﴿وَأَهْدِكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾. لم يقل: وأهديك إليّ، ولا إلى جماعتي، ولا إلى مجدي الشخصي؛ فالنبي دليل لا غاية، وحامل الرسالة جسر لا مقام أخير. وما أفسد الدعوات حين يصبح الداعي هو المركز الذي يريد من الناس أن يدوروا حوله! قد يبدأ باسم الله، ثم يتضخم حضوره حتى تصبح مخالفته عند أتباعه مخالفةً للحق نفسه.

موسى لا ينازع فرعون على العرش ليجلس مكانه في قلوب الناس، بل يخرجهم من مقام الربوبية الكاذبة ويردهم إلى ربهم الحق. إن أعظم تحرير يصنعه الأنبياء أنهم يقطعون الوسائط المتألمة بين الإنسان وربه؛ فلا حاكم يملك ضميره، ولا كاهن يحتكر باب الله، ولا جماعة تمنح الغفران، ولا قائد يستحق طاعة مطلقة.

واختيار لفظ ﴿رَبِّكَ﴾ يفيض بالمعنى؛ فالله الذي يدعو موسى فرعون إليه هو رب فرعون أيضاً، الذي خلقه ورباه وأمدّه بالقوة وأجرى عليه النعم. حتى وهو يطغى، كان يعيش بعباء الرب الذي بحده، ويتنفس هواء لم يخلقه، ويتحرك بجسد لو سلبه الله قوته لعجز عن رفع يده.

إن فرعون لم يكن خارج ربوبية الله حين ادعى الربوبية لنفسه؛ كان تمرده نفسه واقعاً في ملك الله، وكان لسانه الذي قال به: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ مخلوقاً لله. وهذه قمة التناقض في كل معصية: أن يستعمل العبد نعمة الله في مخالفة أمره، وأن يتقوى بعبائته على البعد عنه.

وفي قول موسى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ خطاب لشيء دفنه الطغيان في فرعون: معنى الافتقار. فالملك الذي يقول للناس إنه الأعلى له رب، والقوي الذي ترتجف منه الجموع عبداً لا تستقل نبضة في جسده عن تدبير خالقه. لو عرف فرعون ربه لعرف نفسه، ولو عرف نفسه لما احتاج إلى إذلال الناس كي يشعر بوجوده.

إن كل هوية للإنسان لا تبدأ من عبوديته لله ستظل قلقلةً تطلب من العالم أن يؤكدها. من عرف نفسه بماله احتاج إلى المزيد، ومن عرفها بشهرته خاف النسيان، ومن عرفها بانتصاره احتاج إلى خصوم يهزمهم؛ أما من عرف نفسه عبداً لله، فقد استمد كرامته من موضع لا يستطيع الناس أن يمنحوه إياه أو يسلبوه منه.

الهداية دلالة وليست امتلاكاً للقلوب

قال موسى: ﴿وَأَهْدِيكَ﴾، أي أدلك وأرشدك إلى طريق ربك؛ أما إدخال الإيمان إلى القلب فليس في ملك رسول. وهذه الحقيقة تحرر الداعية من وهم السيطرة على النتائج. عليه أن يصدق، ويبين، ويرفق في موضع الرفق، ويقيم الحجّة، لكنه لا يملك أن يصنع الهداية في قلب من أغلقه.

كم يستهلك الإنسان نفسه لأنه يريد أن يحمل الآخرين على النتيجة التي يراها، فينتقل من البلاغ إلى السيطرة، ومن النصح إلى الوصاية، ومن الحرص إلى الغضب لذاته! إن الهداية من الله، ومهمة الإنسان أن يكون دليلاً أميناً، لا مالئاً لمصائر القلوب. حتى موسى، المؤيد بالوحي والآية الكبرى، لم يكلف بضمان إيمان فرعون؛ كلف أن يبلغه.

وهذا لا يبرر فتور الداعية أو سوء بيانه؛ بل يلزمه بإتقان ما في وسعه، ثم يمنعه من ادعاء ما ليس له. بين التقصير والهيمنة طريق النبوة: بذل كامل، وقلب مفوض إلى الله.

﴿فَتَخَشَى﴾

المعرفة التي تخني لها النفس

رَبَّتْ الآيَةُ الثَّمَرَةَ عَلَى الْهُدَايَةِ: ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخَشَى﴾. فعرفة الله الحقيقية تثمر خشية، لا غروراً ولا برودةً ذهنية. وقد يعلم الإنسان معلومات كثيرة عن الدين، ويحفظ النصوص، ويجيد الحديث عن العقيدة، ثم لا يظهر في سلوكه أثر الخشية؛ لأن المعلومات بلغت ذهنه ولم تبلغ قلبه.

الخشية ليست مجرد خوف من العقوبة، بل خوف ممتزج بمعرفة عظمة الله وكأله، يحمل العبد على تعظيم حدوده ومراقبته في الخفاء. إنها انكسار البصيرة أمام جلال الرب، لا انهيار النفس ولا يأسها. والخاشي لا يرى نفسه آمناً من الانحراف، ولا يستعمل عليه ليعلو على الناس، بل يزيده العلم معرفةً بفقره.

وكانت الخشية هي الدواء الدقيق لمرض فرعون؛ لأنه طغى حين فقد الإحساس بأن فوقه رباً يراه ويحاسبه. لو دخلت الخشية قلبه لوضعت حداً بين القدرة والاستباحة، ولذكّرت أنه سلطان الأرض لا يلغي موقف العبد في السماء. فالضمير الذي لا يشعر برقابة أعلى منه يستطيع أن يعيد تسمية جرائمه حتى يراها إنجازات.

ومن هنا نفهم أن المجتمعات لا يحميها القانون وحده، مع ضرورته؛ إذ يستطيع القوي أن يتحايل على القانون أو يكتبه لمصلحته. إنما تحتاج معه إلى خشية تحرس الإنسان حين يغيب الرقيب الأرضي، وحين يستطيع أن يفعل ولا يكتشف. فالعدل الكامل لا ينشأ من الخوف من العقوبة وحدها، بل من قلب يعرف أن الله يرى.

والخشية لا تنقص من قوة الإنسان في مواجهة الحياة، بل تحرره من الخوف المذل من الخلق؛ فمن خشى الله لم يمنح الطغاة حجماً إلهياً، ومن استحضر المقام بين يديه هانت في عينه مقامات البشر. كان موسى هو الخاشي، لكنه وقف ثابتاً؛ وكان فرعون هو المتكبر، لكنه عاش محاطاً بالخوف، يخشى كلمة نبي، وإيمان ساحر، وصحوة شعب. الكبرياء ليست دائماً علامة قوة، بل قد تكون درعاً سميحاً فوق روح مذعورة.

الطريق المتدرج: تزكية، فهداية، نفخية

تكشف الآيتان عن هندسة دقيقة للتحول الإنساني: ﴿أَنْ تَزَكَّى ۖ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾. تبدأ الرغبة في التطهر، ثم تأتي الهداية إلى الرب، فثمرر الخشية. فالقلب الممتلئ بالكبر قد يرى الدليل ولا ينتفع به؛ لذلك كانت التزكية مهيةً للنظر الصحيح. وإذا انفتح القلب للهداية، لم يتوقف المعرفة عند الذهن، بل تحولت إلى خشية تضبط السلوك.

إن فساد الإرادة قد يحجب وضوح الفكرة؛ فالإنسان لا يرفض الحق دائماً لأنه لم يفهمه، بل قد لا يفهمه لأنه لا يريد ما يترتب عليه. وفرعون لم يكن يجهل مدلول دعوة موسى، لكنه علم أن التزكية ستطال البناء الذي أسس عليه سلطانه كله. فقبول ربوبية الله يعني أن سلطته محدودة، وأن الناس ليسوا عبيده، وأن بني إسرائيل يجب أن يُحرروا، وأن سنوات القهر ليست مجداً بل جرائم تستوجب التوبة.

وهكذا تكون التوبة الحقيقية مكلفة؛ لا لأنها ثمن يُدفع لله مقابل المغفرة، فرحة الله أوسع، بل لأنها تقتضي تفكيك الامتيازات التي بناها الإنسان على الخطأ. قد يقول الظالم: تبت، لكن تزكيتك تتطلب رد الحقوق؛ ويقول المتكبر: استغفرت، لكن هدايته تتطلب اعتذاراً لمن احتقره؛ ويقول صاحب المال الحرام: ندمت، لكن خشية الله تتطلب منه أن يطهر يده. إن التوبة التي لا تمس موضع المرض قد تكون راحةً لغوية أكثر منها تحولاً.

﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ﴾

حين ينتقل البلاغ من الكلمة إلى البرهان المشهود

لم يكتف موسى بالدعوة اللفظية، بل ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ﴾. وقد حملها المفسرون على العصا حين انقلبت حيةً عظيمة، وقيل يدخل معها أمر اليد أو مجموع ما أُيد به موسى من

الآيات، لكن التعبير المفرد يوجّه النظر إلى العلامة العظيمة التي أقامت الحجة على فرعون، وأخرجت دعوى موسى من تقدير فرعون إلى مشهد لا يستطيع تفسيره بسلطانه.

وفي قوله: ﴿فَأَرَاهُ﴾ معنى المواجهة المباشرة؛ لم يسمع فرعون خبر الآية من بعيد، ولم تنقلها إليه رواية يمكنه التشكيك فيها، بل رآها. اجتمع له البيان والبرهان: دعوة رقيقة إلى التزكية، وهداية إلى الرب، ثم آية كبرى تشهد بصدق الرسول. فما الذي بقي بعد ذلك إلا موقف القلب؟

وهنا تكشف السورة أن الدليل، على عظمتها، لا يجبر المتكبر على الإيمان. قد يرى الإنسان الآية، لكنه إذا جعل بقاء صورته القديمة أغلى من الحقيقة بحث عن اسم آخر لما رأى؛ يسمي المعجزة سحراً، والناصح عدواً، والتحرير مؤامرة. ليست العين وحدها هي التي ترى، بل القلب يشارك في تفسير المرئي؛ فإذا فسد القلب، استعمل البصر نفسه لتأكيد ما قرره الهوى مسبقاً.

إن بعض الناس يتصور أنه لو رأى آية خارقة لآمن حتماً، لكن قصة فرعون تعلمنا أن المشكلة ليست دائماً في قلة الآيات. فالكون كله آيات، والإنسان نفسه آية، والقرآن آية، والتاريخ آية؛ غير أن القلب يستطيع أن يمر بها دون أن يخني. ليست المعجزة بديلاً من التواضع، ولا قوة البرهان علاجاً لمن اتخذ كبره عقيدة.

والآية الكبرى وضعت فرعون أمام لحظة كان يمكن أن تنقسم عندها حياته إلى ما قبل الهداية وما بعدها. لقد بلغت الدعوة على لسان نبي كريم، ورأى البرهان، ولم يُطلب منه إلا أن يعود إلى حقيقته عبداً لله. كانت النجاة أقرب إليه من جبل كبريائه، لكنه اختار أن يمسك بالجبل الذي سيجرّه إلى الغرق.

الدعوة التي أنقذت كرامة المخاطب قبل أن يستجيب

في هذا الخطاب كله لم يتلق موسى فرعون، لكنه لم يهدر إنسانيته. لم يقل له إنك تزكيت، بل دعاه إلى التزكي؛ ولم يعترف له بالعلو، بل هداه إلى ربه؛ ولم يكتف بالادعاء، بل أراه الآية. اجتمع في الموقف لطف الدعوة وصلابة الحقيقة ووضوح البرهان.

وهذا هو التوازن الذي يضيع حين ينفصل طرفاه: نخطاب بلا رحمة قد يحول الحق إلى سوط في يد النفس، ورحمة بلا حقيقة قد تتحول إلى مخدر يترك الإنسان في هلاكه. أما خطاب موسى فيقول للطاغية: أنت طغيت، ولكن لك أن تتزكى؛ أنت عبد، ولك رب؛ أمامك آية، وعليك أن تختار.

لقد كرم الوحي فرعون بمنحه فرصة التوبة، لكنه لم يكرمه بالجمالة في باطله. فالكرامة الحقيقية ليست أن نترك الإنسان مرتاحاً داخل وهمه، بل أن نخطب فيه الجزء الذي يستطيع أن ينجو، وأن نصدقه القول حتى لو ألمه. وقد تكون أشد الكلمات رحمةً هي التي تهدم الصورة الكاذبة التي يحمي بها المرء من نفسه.

وبهذا تبلغ الحجة تمامها: نداءً من الله، ورسولٌ صادق، وخطابٌ رفيق، ودعوةٌ إلى التطهر، وتعريفٌ بالرب، وغايةٌ هي الخشية، ثم آية كبرى تُرى بالعين. لم يعد فرعون أمام نقص في البيان، بل أمام امتحان الإرادة: أيتحار أن يكون عبداً كريماً لله، أم يظل رباً كاذباً على الناس؟

وسياأتي الجواب في الآيات التالية سريعاً قاطعاً: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى ۖ ثُمَّ أَدْبَرَ سَعًى﴾. هناك لن نرى مجرد رفض عابر، بل سلسلة الانحدار كاملة: تكذيب في الوعي، وعصيان في الإرادة، وإدبار عن الحق، وسعي منظم لمحاربته، ثم حشد للجمهور، فصيحة الألوهية المجنونة.

وهكذا يتبين أن من يرفض التزكية لا يبقى حيث كان؛ إذ لا توجد في معركة الحق والهوى أرض ساكنة: إما أن تصعد النفس نحو الخشية، وإما أن يهبط بها الكبر حتى تتخذ من ذاتها رباً.

مِنَ التَّكْذِيبِ إِلَى ادِّعَاءِ الرُّبُوبِيَّةِ

كيف يصنع رفض الحق طاغيةً كاملاً؟

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ﴿حَشَرَ فَادَى﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى ﴿

أراه موسى الآية الكبرى، وفتح أمامه باب التزكية، ودلّه على ربّه لعل المعرفة تثمر في قلبه خشية؛ لكن فرعون لم يكن يواجه نقصاً في البيان بقدر ما كان يواجه فائضاً من الكبر. كانت الحجة أمام عينيه، غير أن الإيمان بها يعني أن يعيد تعريف نفسه، وأن ينزل من العرش الذي بناه في خياله، وأن يعترف بأن قوته ليست ربوبية، وأن الناس الذين استعبدتهم عبادة لله لا ملكٌ له.

لهذا جاء الجواب مختصراً حاسماً: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾. فعلاً يجمعان انحراف المعرفة وانحراف الإرادة؛ كذب الخبر، وعصى الأمر. لم يكن التكذيب موقفاً فكرياً معزولاً، ولا العصيان سلوكاً منفصلاً عن تصوره للحقيقة؛ بل أعان أحدهما الآخر. فقد احتاج إلى تكذيب موسى كي يبرر استمرار عصيانه، واحتاج إلى الاستمرار في العصيان كي يحجي كبريائه من الاعتراف بأن موسى صادق.

وهكذا يعمل الهوى حين يسيطر على العقل: لا يقول للإنسان دائماً إن الحق باطل بوضوح، بل يطالبه بصناعة تفسير يسمح له أن يبقى كما هو. وعندئذ يتحول التفكير من وسيلة

لاكتشاف الحقيقة إلى محامٍ يدافع عن الرغبة، وتصبح الحجج ستاراً أنيقاً لخوف داخلي من التغيير.

﴿فَكَذَّبَ﴾

حين يرى الإنسان الآية ثم ينكر دلالتها

جاء التكذيب بعد قوله تعالى: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾؛ فالفاء تكشف سرعة الجواب وقسوة القلب. لم يطلب فرعون زمناً ليتأمل، ولم يسمح للآية أن تعيد ترتيب داخله، بل استنفر دفاعاته النفسية والسياسية لمنع الحقيقة من بلوغ موضع القرار.

وقد يظن الإنسان أن التكذيب يقع دائماً بسبب غياب الدليل، لكن القرآن يعلن أن الدليل لا يعمل في فراغ؛ فهو يدخل إلى نفس لها رغبات ومخاوف ومصالح وصورة سابقة عن ذاتها. فإذا كان قبول البرهان سيهدم امتيازاً راسخاً، فقد يقاومه صاحبه لا لضعفه، بل لقوته؛ لأنه أدرك ما سيطلبه منه.

كان فرعون يستطيع أن يناقش فكرة لا تمس عرشه، أما دعوة موسى فكانت تهدم الأساس الذي يقوم عليه نظامه كله. إن قال إن الله ربّه، فقد أقرّ بأن سلطانه محدود. وإن آمن بأن موسى رسول، وجب عليه أن يطيعه فيما جاء به من تحرير بني إسرائيل. وإن قبل التزكية، لزمه أن يرد الحقوق وأن يراجع التاريخ الذي صاغه لنفسه بطولاً، وهو في ميزان الوحي طغيان.

لذلك لم يكن التكذيب كلمةً في مواجهة معجزة فحسب، بل كان دفاعاً عن عالم كامل من المصالح. وما أكثر الذين يطلبون البرهان ما دام لا يكلفهم شيئاً، فإذا جاء الحق متصلاً بحق مظلوم أو ردّ مال أو ترك شهوة، انتقلوا من البحث عن الحقيقة إلى البحث عن مخرج منها! وقد يكون في النفس لون خفي من التكذيب لا يُقال باللسان؛ يقرأ الإنسان وعد الله، لكنه يعيش كأن الرزق بيد المخلوق وحده، ويقرأ وعيده، ثم يعصي كأن الحساب لن يقع، ويعرف أن الكبر مذموم، ثم يرفض الاعتذار لأن ذاته عنده أكبر من أن تنحني للحق. هذا ليس إنكاراً عقدياً صريحاً، لكنه تناقض عملي يترك المعرفة في جانب والسلوك في جانب آخر.

إن الإيمان الحق ليس أن تقول للآية: صدقت، ثم تمنعها من الدخول إلى حياتك؛ بل أن تمنحها حق الحكم على تصوراتك ورغباتك. وما خافه فرعون من رسالة موسى هو عين ما ينبغي للمؤمن أن يطلبه من القرآن: أن يزعرع في داخله ما لا يرضي الله، لا أن يتحول الوحي إلى زخرفة لغوية فوق حياة لم تتغير.

﴿وَعَصَى﴾

حين يتحول الرفض الداخلي إلى موقف

بعد التكذيب يأتي العصيان؛ لأن التصور المنحرف يلد سلوكاً يشبهه. والعصيان ليس مجرد ترك أمر، بل خروج الإرادة عن الطاعة مع قيام الحجّة. لقد عرف فرعون ما يدعوه إليه موسى، ورأى الآية، ثم اختار أن يجعل إرادته فوق النداء الإلهي.

كان يمكن للحظة الاعتراف أن تنقذه؛ فالتوبة ليست مطالبة بأن يحو الإنسان ماضيه بقدرته، وإنما بأن يعترف به ويرجع إلى الله ويصلح ما يستطيع إصلاحه. لكن النفس المستكبرة ترى الإقرار بالخطأ أصعب من الاستمرار فيه، فتدفع ثمنًا متزايدًا لحماية صورة قديمة عن ذاتها.

كم من خطأ صغير تضخم لأن صاحبه أبى أن يقول: أخطأت! كان الاعتذار في بدايته كلمة، ثم صار بعد المكابرة الطويلة انهياراً لبناء كامل من التبريرات، فاختار صاحبه أن يضيف ظلمًا إلى ظلم حتى لا يعترف بالأول. وهكذا لا يعود الإنسان يدافع عن الفعل، بل عن نفسه التي ربطها به؛ فيتوهم أن سقوط رأيه سقوط لكرامته، وأن الرجوع عن الخطأ هزيمة، مع أن الهزيمة الحقيقية هي أن يعرف الحق ثم يعجز عن الانحناء له.

العصيان هنا هو الوجه العملي للربوبية الكاذبة؛ فالعبد يقول بفعله: أمر الله فوق إرادتي، أما المتأله فيقول: إرادتي هي المعيار. وقد لا ينطق إنسان بلسانه قول فرعون، لكنه يمنح نفسه في بعض المواطن حقًا فرعونيًا حين لا يقبل من شرع الله إلا ما وافق هواه، أو حين يظن أن مكانته تعفيه من الحدود التي تلزم غيره.

إن العبودية لا تظهر فقط في كثرة الشعائر، بل في لحظة التعارض: حين يأمر الله بشيء وتريد النفس غيره، فمن الذي يُقدّم؟ هناك ينكشف السيد الحقيقي في القلب. أما حين تتوافق الرغبة والطاعة، فقد يصعب على الإنسان أن يعرف أهو مطيع لله أم متبع لما أحب.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى﴾

لا يكتفي الباطل بأن يرفض

جاءت ﴿ثُمَّ﴾ لتصور انتقالاً آخر في طريق الانحدار: لم يكتف فرعون بأن يكذب ويعصي، بل ﴿أَدْبَرَ يَسْعَى﴾. والإدبار هو إعطاء الظهر والانصراف عن الحق، أما السعي فهو الحركة الجادة المقصودة. لقد انصرف عن الهدى، لكنه لم ينصرف ساكناً؛ تحرك بنشاط لمقاومته.

وهذه من أخطر خصائص الباطل حين يشعر أن الحقيقة تهدد بناءه: لا يكتفي بأن يرفضها لنفسه، بل يسعى إلى منعها من الوصول إلى الآخرين. فالإيمان الفردي بموسى كان سيكشف ضعف فرعون، وانتشار الدعوة كان سيحرر الناس من الخوف الذي يقوم عليه ملكه، ولذلك تحوّل الإنكار إلى مشروع.

والمفارقة شديدة: حين دُعي إلى التزكية لم يسع، وحين اختار الباطل أدبر يسعى. كم يتناقل الإنسان في طريق نجاته، ثم يجد طاقة عجيبة في الدفاع عن هواه! كم يؤجل إصلاح نفسه أعواماً، لكنه يستنفر في لحظة إذا مُسّت صورته! إن النشاط في ذاته لا يدل على صحة الوجهة؛ فقد يكون الضلال منظماً نشيطاً، بينما يكون الحق في قلب صاحبه أمنيّة كسولة.

وفي قوله: ﴿أَدْبَرَ يَسْعَى﴾ تصوير جسدي لحقيقة روحية؛ فهو يتحرك إلى الأمام في حساب قدميه، لكنه يدبر في ميزان الهداية. ليست كل حركة تقدماً، ولا كل توسع ثمناً، ولا كل نجاح دليلاً على السير الصحيح. قد يقطع الإنسان مسافات بعيدة في الاتجاه الخطأ، فيكون ازدياد سرعته ازدياداً في البعد.

وهذه الآية ميزان للحضارات والأفراد؛ فقد يتقدم مجتمع في أدواته ويتراجع في معنى الإنسان، وقد يتفوق في السيطرة على الطبيعة ويعجز عن السيطرة على جشعه، وقد يزداد إنتاجه وتنقص رحمته. إن القرآن لا ينكر قيمة العمران، لكنه يرفض أن يسمّى كل حركة ارتقاءً؛ فالارتقاء الحقيقي يجمع قوة الوسيلة واستقامة الغاية.

من الإِدبار الفردي إلى صناعة الموقف العام

لم يكن فرعون شخصاً يملك رأياً خاصاً فحسب؛ كان يملك أدوات تحويل رأيه إلى وعي عام. ولهذا لم يبق إدباره في قلبه، بل خرج في صورة سعي سياسي وإعلامي واجتماعي. فالطغيان يخاف أن يترك الناس أمام الحقيقة مباشرة؛ لأن الحقيقة إذا وصلت إليهم بلا حجاب قد تكسر السحر الذي صنعه حول نفسه.

لذلك يحتاج الطاغية إلى رواية موازية: يحوّل النبي إلى ساحر، والتحرير إلى تهديد للأمن، وحرية الإنسان إلى مؤامرة، وحماية العرش إلى حماية للوطن. إنه لا يقول للناس: دافعوا عن كبريائي، بل يجعل كبرياءه متلبساً بمصالحهم، حتى يظنوا أن سقوط استبداده سقوط لعالمهم.

وهنا يظهر خطر اللغة مرة أخرى؛ فالطغيان لا يعيش بالسيف وحده، بل بالكلمات التي تخفي السيف. حين يسمّي الخوف استقراراً، والصمت رضا، والنهب تنمية، والاحتكار وحدة، يكون قد انتزع من الناس القدرة على وصف أفعالهم. ومن لا يملك الاسم الصحيح لمرضه قد يعجز عن طلب العلاج.

﴿فَحْشَرُ فَنَادَى﴾

صناعة الجمهور حول الوهم

انتقل السعي إلى الحشر: ﴿فَحْشَرُ﴾، أي جمع الناس أو جمع السحرة والجنود والملائ، وحشد ما استطاع من القوة البشرية حول موقفه. ثم ﴿فَنَادَى﴾؛ فالحشد يحتاج إلى نداء، والجمهور يحتاج إلى خطاب يصنع له صورةً موحدة للحدث.

لقد جاء موسى بكلمة من الله، وجاء فرعون بجهور. وكأن الطغيان يريد أن يعوض ضعف الحقيقة بكثرة الأصوات؛ فإذا لم يكن معه البرهان، جمع الناس ليصنع من اجتماعهم دليلاً موهوماً. لكن الحقيقة لا تتحدد بعدد المصنفين، والباطل لا يصبح حقاً لأن الساحات امتلأت باسمه.

الحشد قوة مؤثرة في النفس؛ فالإنسان قد يستحي أن يرى ما لا يراه الجمع، ويخاف أن يقف وحده خارج الصف، فيتنازل عن بصيرته حتى يحتفظ بإحساس الانتماء. وهنا يصنع الطغيان أخطر انتصاراته: حين يجعل الفرد يشك في عينيه لأن الآخرين يرددون رواية واحدة، أو يصمت عن يقينه لأن الصوت الجماعي أعلى.

وقد جمع فرعون الناس، لكنه لم يجمع قلوبهم على حقيقة؛ جمعهم تحت الخوف والدعاية والمصلحة. والجماعة التي يوحدتها الخوف تبدو متماسكة حتى تبدأ أول شقوق القوة، ثم تنكشف هشاشتها؛ لأنها لم تنأسس على اختيار حر، بل على مركز يطلب من الجميع أن يستمدوا وجودهم منه.

وفي المقابل، وقف موسى مستنداً إلى الله، لا إلى كثرة العدد. وهذه ليست دعوة إلى احتقار الجماعة أو ترك تنظيم الخير، بل إلى تحرير ميزان الصواب من العدد. فالمؤمن يسعى إلى جمع الناس على الحق، لكنه لا يجعل اجتماعهم مصدر الحق؛ المصدر هو وحي الله، والجماعة تتشرف بموافقته ولا تمنحه شرعيته.

أما النداء فيحمل معنى رفع الصوت وإبلاغ الجمع. كان فرعون يحتاج إلى العن، لأن صورته قائمة على أن يرى ويسمع ويحيط به الناس. والطاغية لا يكتفي بالطاعة الهادئة؛ يريد

إعلانها، يريد أن يسمع الناس يكررون كلماته، لأن داخله يعرف هشاشة الدعوى فيحتاج إلى صدى خارجي يغطي ارتجافها.

﴿قَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾

الكلمة التي بلغ عندها الطغيان منتهاه

هنا تبلغ السلسلة ذروتها: كذب، فعصى، فأدبر، فسعى، فحشر، فنادى، فقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾. لم تسقط هذه الكلمة فجأة من السماء، بل نمت داخل سلسلة من الاختيارات. كل حلقة مهدت لما بعدها، حتى استطاع بشر مخلوق، لا يملك لنفسه نبضاً ولا نفساً، أن يعلن أمام الناس أنه ربهم الأعلى.

قد تبدو العبارة جنوناً لا يحتاج إلى تحليل، لكنها في بنية الطغيان منطقية؛ فمن اعتاد أن أمره لا يُرد، وأن إرادته تصنع مصائر الناس، وأن الحاشية تصدقه في كل شيء، يبدأ في فقدان الحدود بين السلطة والربوبية. إن الناس الذين خضعوا له قسراً أو طمعاً ساهموا في بناء المرأة التي رأى فيها نفسه أكبر من حقيقته.

والكلمة تبدأ بـ ﴿أَنَا﴾؛ وهذه الأنا، حين تفصل عن العبودية، تستطيع أن تبتلع كل شيء. ليست «أنا» في ذاتها مذمومة؛ فالإنسان يعرف بها مسؤوليته وخصوصيته، لكن الخطر حين تتحول من تعريف بالنفس إلى مركز للكون، فلا ترى حقاً إلا ما وافقها، ولا قيمة إلا ما خدمها، ولا وجوداً للآخر إلا في حدود دوره حولها.

قال: ﴿رَبُّكُمُ﴾، لأنه لم يكتف بتضخيم ذاته، بل أعاد تعريف الآخرين بوصفهم تابعين له. فالطاغية لا يتأله في عزلة؛ يحتاج إلى عبيد يثبتون دعواه. ولذلك فإن تحرير المستضعفين

ليس فقط نقلهم من سيطرة حاكم إلى آخر، بل ردّ تعريفهم لأنفسهم: أنتم عباد الله، لا مادة في مشروع فرد، ولا أرقام في موكب مجده.

ثم زاد: ﴿الْأَعْلَى﴾، كأن الاستعلاء يحتاج دائماً إلى درجة أخرى. فالنفس التي تطلب العلو لا تصل إلى موضع تقول فيه: كفى؛ كل قمة تبلغها تكشف لها قمة أخرى تريد احتلالها. من طلب قيمته في أن يكون فوق غيره عاش مهدداً بكل إنسان يرتفع، ولذلك لا يستريح المستكبر؛ لأن وجود الآخرين نفسه ينافس الصورة التي يريد لها لنفسه.

ولم تكن ربوبية فرعون اعتقاداً فلسفياً مجرداً، بل كانت نظاماً يطالب الناس بطاعته المطلقة. وهذا هو جوهر التآله البشري في كل عصر: أن يطلب شخص أو مؤسسة أو فكرة من الإنسان ما لا يكون إلا لله؛ أن يُسلم ضميره، ويعطل بصيرته، ويبرر ما يعلم بطلانه، ويطيع بلا ميزان.

وقد تتغير ألفاظ الفرعونية ولا يتغير معناها. قد لا يقول أحد: أنا ربكم الأعلى، لكنه يتصرف كأن نقده محرم، وكأن القانون يقف دونه، وكأن الحقيقة تبدأ من فيه، وكأن الوطن ملكه، وكأن الناس خلّقوا لخدمته. إن القرآن يكشف الروح وراء العبارة، حتى لا نظن أن الفرعونية ماتت حين سكت صوت فرعون القديم.

﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ﴾

اليد التي لا يعجزها الطغاة

بلغ فرعون أعلى نقطة في ادعائه، فجاءت الفاء: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ﴾. ما بين قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ﴾ و﴿الْأَعْلَى﴾ وذكر اسم الله في الآية التالية مسافة تكفي لهدم الوهم كله. قال: أنا، فردّته

الحقيقة إلى كونه مأخوذاً. قال: ربكم، فأظهر الله من الرب الحق. قال: الأعلى، فإذا هو أدنى من أن يدفع عن نفسه الأخذ.

والأخذ يوحى بالقوة والإحاطة والمباغته؛ كأن فرعون، على اتساع ملكه، شيء صغير وقعت عليه القدرة فلم يجد منفذاً. لم يحتاج الله إلى معركة متكافئة معه؛ فليس ثمة تكافؤ بين خالق ومخلوق، وإنما أمهله حتى أقام عليه الحجة، ثم أخذه حين جاء الأجل.

إن إهمال الطغاة يريك النظر القصير؛ يرى الناس بطشهم ممتداً فيحسب بعضهم أن القدرة لا تصل إليهم، أو أن نجاحهم دليل على صوابهم. لكن الإهمال ليس عجزاً، بل قد يكون استدراجاً وإقامةً للحجة ومنحاً لفرصة التوبة. والساعة التي يظن فيها الطاغية أن ملكه استقر قد تكون هي الساعة التي اكتملت فيها أسباب سقوطه.

وفي قوله: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ﴾ عزاء لكل مظلوم يظن أن خصمه أكبر من العدالة. قد يعجز المظلوم عن الوصول إليه، وقد تغلق المحاكم أبوابها، وقد يكتب الطاغية رواية تبرئه، لكن الله لا تعوقه الأبواب والحرس والروايات. إن عدل الآخرة لا يلغي واجب مقاومة الظلم في الدنيا، لكنه يمنع القلب من اليأس حين تعجز الوسائل؛ فلا يتحول تأخر الإنصاف إلى اعتقاد أن الحق ضاع.

﴿نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾

العقوبة التي تصير علامةً للمتأخرين

النكال عقوبة شديدة تجعل صاحبها عبرةً لغيره، وتردع من يفكر في سلوك طريقه. وقد تعددت أقوال المفسرين في المراد بـ ﴿الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾؛ ف قيل: نكال كلمته الآخرة ﴿أَنَا

رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ﴿١﴾ وكلمته الأولى في ادعاء الألوهية، وقيل: عذاب الآخرة وعذاب الدنيا، وهو معنى ظاهر جامع: أخذ الله بعقوبة الدنيا، وله في الآخرة العذاب الأشد.

لقد غرق فرعون في الماء الذي كان يرى ملكه ممتداً حول مجراه، وتحول الجسد الذي أخاف الناس إلى علامة على عجز صاحبه. ثم لم يكن الغرق خاتمة الحساب، لأن جرائمه أوسع من أن يستوفيها موت دنيوي؛ وراءه نكال الآخرة، حيث تظهر حقوق من استضعفهم وقتل أبناءهم واستحيا نساءهم وأفسد فطرتهم.

وهنا يتبين الفرق بين العقوبة والانتقام البشري المنفلت. نكال الله عدل لا يتجاوز مقدار الحق، صادر عن علم كامل لا يخطئ، أما الإنسان فقد يعاقب وهو غاضب فيتجاوز، أو يحكم بمعلومة ناقصة فيظلم. لذلك لا يجوز أن يتخذ المؤمن من وصف عذاب الطغاة ترخيصاً لتشبه نفسه بطغيانهم؛ فالحق لا ينصر بالظلم، ومن قاوم فرعون بمنطق فرعون فقد غير الأسماء وأبقى المرض.

وأصبح فرعون بعد هلاكه نكالا ممتداً في الذاكرة؛ أراد أن يجعل اسمه مرادفاً للعلو، فجعله الله عنواناً للطغيان والسقوط. وهذا من انقلاب المقاصد على أصحابها: كم من إنسان طلب الخلود بالظلم، فلم يبق منه إلا عار ظلمه! وكم من متواضع أخفى عمله لله، فرفع الله ذكره بعد رحيله! ليست السيطرة على الحاضر ضماناً لصورة الإنسان في التاريخ، فضلاً عن حكمه في الآخرة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً﴾

العبور من القصة إلى النفس

لم يقل الله: إن في ذلك لمعلومة، بل قال: ﴿لَعِبْرَةٌ﴾. والعبرة مأخوذة من العبور، يعبر بها الإنسان من المشهد إلى معناه، ومن مصير غيره إلى مراجعة نفسه، ومن الماضي إلى الحاضر. فمن قرأ قصة فرعون ثم خرج منها متحدثاً عن طاغية مات، ولم يسأل عن بذور الطغيان في نفسه وواقعه، فقد عرف الخبر ولم يعبر.

العبرة أن القوة إذا انفصلت عن العبودية انقلبت طغياناً، وأن الدليل لا ينفع قلباً يرفض التزكية، وأن الباطل لا يقف عند حد التكذيب بل يسعى ويحشد وينادي، وأن الجماهير قد تُستعمل ستاراً لدعوى فرد، وأن الإمهال ليس نجاة، وأن اليد التي لم يرها الطاغية كانت أقرب إليه من عرشه.

والعبرة أيضاً في موسى: أن رجلاً يتلقى نداء ربه في وادٍ بعيد يستطيع أن يقف أمام إمبراطورية؛ لا لأن ميزان المادة صار لجأة في صالحه، بل لأن الحق يحرر القلب من تضخيم القوة الزائفة. وأن الدعوة، حتى في وجه الطغيان، تبدأ بعرض التزكية، ثم تقيم البرهان، ثم تترك للمخاطب مسؤوليته.

والعبرة في المسافة بين الفرص والنهايات؛ فقد سمع فرعون: ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾، ثم انتهى إلى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ﴾. بين العبارتين عاش لحظة اختيار كان يستطيع فيها أن يعود. وهكذا يقف كل إنسان بين نداء الرحمة وأخذ العدل؛ وما دام يسمع النداء، فالباب لم يُغلق، لكن أحداً لا يعرف متى تنتهي المهلة.

﴿لَمَنْ يَحْشَى﴾

ليست كل عين ترى العبرة

قَدِّت الآيَة الانتفاع بالعبرة بمن يخشى: ﴿لَمَنْ يَخْشَى﴾. فالحوادث تقع أمام الجميع، لكن القلوب لا تقرؤها بالطريقة نفسها. قد يرى إنسان سقوط طاغية فيزداد تواضعاً، ويراها آخر فيفكر كيف يرث مكانه. وقد يشيخ الناس ميتاً واحداً، فيعود بعضهم مستعداً للقاء الله، ويعود بعضهم إلى الغفلة نفسها.

الخشية هي العين الداخلية التي ترى ما وراء الحدث. ومن دونها يتحول التاريخ إلى قصص عن صراع القوى، وينظر الإنسان إلى نهاية فرعون بوصفها خلافاً في حساباته العسكرية، لا حكماً أخلاقياً على الطغيان. أما الخاشي فيرى السنن والأقدار، ثم يسأل عن موقعه منها.

ومن روعة بناء السورة أنها قالت قبل قصة فرعون: ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾، ثم ختمت القصة: ﴿لَمَنْ يَخْشَى﴾. عُرِضَت الخشية على فرعون فرفضها، فأصبح هو نفسه عبرة ينتفع بها أهل الخشية. كان يستطيع أن يكون من المتعظين، فصار مادةً للانعاط؛ وكان يستطيع أن يخاف مقام ربه فينجو، فصار سقوطه شاهداً على مصير من لا يخشى.

وهذه مفارقة موجعة: من يرفض أن يتعلم من العبر قد يتحول هو إلى عبرة لغيره. والحياة لا تترك الإنسان بلا دور، إما أن يقرأ الآيات فينتفع، وإما أن يكتب بعضيانه مشهداً يقرؤه الآخرون.

الفرعون الكامن في التفاصيل

إن قصة فرعون تبلغ ذروتها السياسية، لكنها لا تُقرأ قراءةً صحيحة إذا حُصرت في أصحاب العروش. فقد لا يملك الإنسان شعباً، لكنه يملك مساحة يختبر فيها: أسرة، أو مؤسسة، أو جماعة، أو مجلساً، أو قلماً، أو جمهوراً صغيراً. وهناك يتبين هل يرى ما في يده أمانة أم ربوبية مصغرة.

قد يقول الأب بفعله: أنا ربكم الأعلى، حين يطلب الطاعة في الباطل، ويجعل خوف أسرته منه عنواناً للهيبة. وقد يقول المسؤول ذلك حين يخلط المؤسسة بذاته، فلا يرى نقد القرار إلا إهانة شخصية. وقد يقوله الكاتب حين يطلب من قارئه ألا يناقشه، ويغضب من كل عقل لا يدور في فلكه. وقد يقوله المظلوم نفسه إذا مُنح قوةً فَنسي ما كان يطلبه من عدل.

ولا تكون مقاومة هذا الفرعون الداخلي بإنكار وجوده، بل بالتزكية؛ أن يتعلم الإنسان أن يفرّق بين كرامته وكبريائه، وبين مسؤوليته وامتنازه، وبين احترام الناس له وعبادتهم لصورة صنعها. وأن يفرح بمن يصحح له كما يفرح بمن يمدحه، لأن الأول قد ينقذه والثاني قد يتركه يتضخم حتى يسقط.

نهاية العلو الزائف

تبدأ القصة بنداء الله لموسى، وتنتهي بأخذ الله فرعون. وفي البداية ربٌ ينادي عبداً يعرف عبوديته، وفي الذروة عبداً ينادي الناس مدعيّاً الربوبية، ثم يأتي الحكم ليعيد الأشياء إلى مواضعها. نداء الوادي بقي هدايةً تلي، ونداء القصر بقي فضيحةً يتعظ بها الخاشعون.

لقد ظن فرعون أن العلو هو ألا يكون فوقه أحد، ولم يفهم أن كرامة الإنسان ليست في منافسة الله - تعالى الله عن ذلك - بل في السجود له. أراد أن يرتفع خارج حد العبودية، فسقط؛ وارتفع موسى لأنه ازداد عبودية. وفي ميزان القرآن، لا يرفع الإنسان عدداً من يخنون أمامه، بل صدقُ انحنائه لله.

وبذلك تكتمل قصة موسى في هذا الموضع، لا بكل تفاصيلها التاريخية، بل بما يخدم محور السورة: المصير الذي يهدم استعلاء الإنسان. لقد أنكرت قریش البعث، فعرض القرآن عليها نموذجاً لمن عاش كأنه لا بعث، ثم أراها كيف انتهى. فالقضية ليست جدلاً عن العظام

النخرة وحدها؛ إنكار الآخرة يحلّ الهوى من الحساب، والهوى إذا امتلك القوة صنع فرعون.

وبعد أن أظهر الله ضعف أعتى قوة بشرية أمام أخذه، تتجه السورة إلى الإنسان كله بسؤال يضع غروره أمام بناء يفوقه: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ﴾؟ فإذا كان فرعون قد نازع الحق بسلطانه، فإن منكري البعث ينازعونه بتقديرهم لقدرة الله. وسترفع السورة أبصارهم إلى السماء، ثم تعيدها إلى الأرض والماء والمرعى والجبال، لتقول: إن الذي بنى هذا العالم لا يعجزه أن يعيد إنساناً تفرقت عظامه في التراب.

الفصل السابع

أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ؟

حين يردّ الكون على استبعاد البعث

﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿١﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٣﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٤﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٥﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٦﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾

بعد أن عرضت السورة مصير فرعون الذي توهم أن سلطانه يجعله أعلى من حدود العبودية، تنجّه إلى لون آخر من الغرور: غرور الإنسان بعقله حين يجعل استبعاده للبعث حكماً على قدرة الله. فكما بالغ فرعون في تقدير قوته حتى ادعى الربوبية، بالغ المنكرون في تقدير عقولهم حتى ظنوا أن ما يصعب عليهم تصويره يصعب على الخالق إيجاداه.

لهذا لا تجيبهم السورة بجدل نظري طويل، بل ترفع أبصارهم إلى البناء القائم فوقهم: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ﴾؟ كأنها تقول: قبل أن تحكموا باستحالة الإعادة، انظروا إلى العالم الذي تعيشون داخله. إنكم تجعلون العظام النخرة برهاناً على العجز، بينما السماء فوقكم برهان على القدرة، والأرض تحتكم برهان، وتعاقب الليل والضحى، وخروج الماء والمرعى، وثبات الجبال؛ كلها شهادات مفتوحة، لكن الألفة نزعت منها في أعينكم دهشتها.

إن المشكلة ليست ندرة الآيات، بل اعتيادها. فالإنسان يُفاجأ بالحدث الصغير إذا خرج عن نظامه المألوف، لكنه يمر أمام الكون الهائل كل يوم دون أن يرتجف قلبه؛ يرى الشمس

تخرج من ظلمة الليل، والماء يشق الأرض، والبذرة الميتة تصير سنبلة، ثم يسأل: كيف يُبعث الموتى؟ لقد حجبت العادة عظمة القدرة، فجاء القرآن لينزع غطاء الألفة عن الوجود، ويعيد الأشياء إلى طزاجتها الأولى، حتى يرى الإنسان في كل صباح آية لا مجرد تكرار.

﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمَ السَّمَاءُ﴾

السؤال الذي يعيد الإنسان إلى حجمه

ليس السؤال طلباً لجواب مجهول، وإنما هو استفهام تقريرى يضع الإنسان أمام ما لا يستطيع إنكاره. أيهما أشد في تقديركم: إعادة أجسادكم الصغيرة أم بناء هذه السماء الهائلة؟ فإذا أقررتم بضخامة خلق السماء، وعلمتم أن الله هو بانيها، فمن أين جاء استبعادكم لبعث الإنسان؟

وفي السؤال ردّ على التعالي المعرفي؛ لأن الإنسان كثيراً ما يعامل وجوده كأنه أعقد ما في الكون، ثم يقيس كل شيء إلى حدود خبرته. يأتي القرآن فيزيح الذات من مركز المشهد، ويرفع البصر إلى آفاق لا يستطيع الإنسان الإحاطة بها. ليس المقصود تحقيره، فقد كرمه الله، وإنما إنقاذه من الغرور الذي يفسد إدراكه؛ فالإنسان عظيم بما حمّله الله من أمانة، لكنه صغير أمام ملك الله، ومحدود في علمه مهما اتسعت أدواته.

إن من تأمل السماء حقاً يصعب عليه أن يتكبر؛ فكل اتساع فيها يردّه إلى ضآلة حجمه، وكل انتظام يكشف له عجزه عن إدارة نبضة في ذلك النظام العظيم. غير أن التأمل القرآني لا ينتهي إلى شعور بالضياع في كون صامت، بل إلى الطمأنينة؛ فالسما ليست فراغاً بلا معنى، وإنما بناء صنعه رب حكيم، والإنسان الصغير في حجم الجسد معلوم عند خالق ذلك الاتساع، يسمع دعاءه ويرى دمعته ويحفظ عمله.

وهنا يجتمع في الإيمان شعوران يبدوان متقابلين: التواضع والكرامة. يتواضع الإنسان لأنه ليس مركز الوجود، ويشعر بالكرامة لأن رب الوجود خاطبه وهدهد وحمله مسؤولية. فلا يصير اتساع الكون ذريعة لإنكار قيمة الإنسان، ولا يصير تكريمه ذريعة لنسيان فقره.

وفي وصف الخلق بالشدة نظر إلى عظمة الصنعة وإحكامها وما يقدره البشر من صعوبة إنشائها. أما الله سبحانه فلا يلحق قدرته تعب أو معالجة، ولا يكون خلق السماء شاقاً عليه وخلق الإنسان يسيراً بمعنى المشقة البشرية؛ فكل شيء أمام أمره نافذ. وإنما يخاطبهم القرآن بما يدركونه ليقم الحجّة: من قدر على الأعظم في نظركم لا يستبعد في حقه ما ترونه أقل.

﴿أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾

الوجود ليس حطام مصادفة

لم يقل: أم السماء خلقها فحسب، بل قال: ﴿بَنَاهَا﴾. والبناء يستدعي القصد والتقدير والترابط؛ أجزاء ينتظم بعضها مع بعض لتقوم البنية على هيئة محكمة. وهكذا ينقل اللفظ السماء من مجرد فضاء ممتد إلى بناء يشهد لخالقه بالحكمة.

إن السماء في الحس القرآني ليست خلفية صامتة لأحداث الأرض، بل آية قائمة؛ فوق الإنسان في كل لحظة، تذكّره بأن وجوده يجري تحت سلطان أعظم. وقد يحيط المرء نفسه بسقف من صنعه، فينسى السقف الكوني الذي لا يملك فيه حجراً ولا دعامة، ويظن أن مأواه الصغير يمنحه استقلالاً، مع أن بيته كله نقطة تحت بناء الله.

وإسناد البناء إلى الله واضح: ﴿بَنَاهَا﴾؛ ضمير الفاعل يعود إلى الخالق سبحانه، وإن لم يسبق الاسم ظاهراً في الجملة، لأن الفطرة والسياق يشهدان بأن الفاعل معلوم. كأن الآية لا

تناقش أصل وجود الخالق فقط، بل تخاطب من يقر بأن الله خلق ثم يتناقض حين يستبعد الإعادة. وما أكثر التناقض بين إقرار نظري بالخالق وحياة عملية لا ترى آثار ربوبيته!

إن من قال إن الله بنى السماء، ثم ظن أن تدير حياته خرج من يده، لم يستوف معنى إقراره. ومن آمن بأن هذا الاتساع كله قائم بأمر الله، ثم توهّم أن مشكلة صغيرة استعصت على القدرة، فقد جعل معرفته معلومة لم تبلغ الطمأنينة. ليست الغاية من النظر في السماء أن تثبت قضية ذهنية فحسب، بل أن يتغير مقدار خوفنا ورجائنا؛ فالذي بنى السماء قادر على أن يحمل همّ عبد، وأن يفتح له طريقاً لم يره، وأن يعيده بعد موته للحساب والجزاء.

﴿رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا﴾

العلو الذي لا يعتره اضطراب

السَّمَك هو الارتفاع أو الثخانة؛ والمعنى أنه رفع بناء السماء وأعلى سقفها، ثم سَوَّاهَا وأَحْكَمَهَا، فلم يجعلها بناءً مضطرباً متنازلاً. وبين الرفع والتسوية اجتماع العظمة والدقة؛ ليست ضخامة فوضوية، بل عظمة منضبطة بالحكمة.

والإنسان قد يستطيع أن يصنع شيئاً ضخماً، لكنه يعجز عن إحكام كل تفاصيله، أو يتقن جزءاً صغيراً على حساب أجزاء أخرى. أما الصنعة الإلهية فتجمع السعة والإحكام؛ لا يشغله عظيم عن صغير، ولا كلية النظام عن أدق جزئياته. فالرب الذي يرفع السماء هو نفسه الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وفي ﴿فَسَوَّاهَا﴾ معنى التناسق الذي يفتح العين على قيمة الميزان في الوجود. لم يُخلق الكون على التفاوت العبيّ، بل على مقادير وعلاقات؛ وكل اختلال محدود يقع في نظام أوسع

تحكمه السنن التي أودعها الله. وهذا الاتزان الكوني يعلم الإنسان أن صلاح حياته لا يقوم على الرغبة المنفلتة، بل على تسوية قواه تحت هداية الله؛ فلا يطغى الجسد على الروح، ولا العقل على الوحي، ولا الفرد على الجماعة، ولا السلطة على الحق.

الطغيان الذي عرضته السورة قبل هذا المقطع هو نقيض التسوية؛ فرعون تجاوز حدّه، فاختلف بسببه ميزان الحياة. فالكون من فوقه مسوّى، لكنه أراد لمجتمعه أن يدور حول شهوته. ومن هنا تبدو المعصية خروجاً أخلاقياً عن معنى التوازن الذي يشهد به الخلق؛ ليس بمعنى أن الإنسان يستطيع إفساد نظام الكون العام، بل إنه يفسد المساحة التي ائتمنته الله عليها حين يضع الشيء في غير موضعه.

والعدل لون من التسوية؛ أن يُعطى كل ذي حق حقه، وأن تقف القوة عند حدها، وأن لا يعلو مخلوق فوق منزلته. وحين ينظر المؤمن إلى السماء المسوّاة، ينبغي ألا يكتفي بالإعجاب بجعلها، بل يسأل: ما الذي يحتاج إلى تسوية في داخلي؟ أي قوة طغت؟ وأي حق همّش؟ وأي ميل خرج عن حد العبودية؟

﴿وَأَغْطِشْ لَيْلَهَا﴾

الظلمة التي تدخل في هندسة الرحمة

الإغطاش هو الإظلام؛ أظلم الله ليل السماء، فصار الليل سائراً يهدأ فيه الصخب، وتسكن الأجساد، وتنكشف التفاصيل التي ملأت النهار. والليل ليس فراغاً بين نهارين، بل جزء مقصود من نظام الحياة. ففي الظلمة رحمة لا ينتبه إليها من يختزل النعمة في النور وحده.

إن الإنسان يحب الوضوح، لكنه لا ينو كفه في الضوء؛ ثمة أشياء تتضح في الستر، وقلوب تستعيد صوته في السكون، وأرواح لا تسمع ضعفها إلا حين تهدأ ضوضاء العالم. وقد جعل الله الليل لباساً وسكناً، ليتعلم الإنسان أنه ليس مخلوقاً للحركة المتصلة، وأن التوقف ليس دائماً عجزاً، بل قد يكون تجددًا وإعدادًا.

وفي الحياة ليالٍ معنوية يضيق بها الإنسان؛ أوقات لا يرى فيها الطريق كاملاً، ولا يفهم حكمة ما يجري، ويشعر كأن النور الذي اعتاده قد احتجب. لكن قوله: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ يرّد الظلمة إلى فعل الله وتقديره، فلا تصبح الليلية خروجاً من ملكه. ليس كل ما لا نراه عدماً، ولا كل ما لا نفهمه عبثاً؛ وقد يكون الله في فترة الخفاء يبني من الداخل ما سيظهر أثره حين يخرج الضحى.

غير أن هذا المعنى لا يبرر ظلمات الظلم التي يصنعها البشر؛ فليل الله الكوني جزء من التوازن، أما الظلم فهو مجاوزة للحد. المطلوب ألا نخلط بين قدر مؤلم نتعبد لله بالصبر عليه، وباطل بشري يجب أن نسعى إلى رفعه. والتوكل لا يحوّل القهر إلى فضيلة، كما أن مقاومة القهر لا تخرج المؤمن عن الرضا بالله.

﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾

النور المستخرج من قلب الغطاء

لم يقل: وجعل نهارها، بل قال: ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾، وفي الإخراج حركة ولادة وانكشاف؛ كأن الضحى كان مودعاً خلف ستار الليل، ثم أخرجه الله إلى الظهور. الظلمة ليست مألوفة للمشهد، والنور ليس مفقوداً حين يغيب عن العين، وإنما لكل منهما موعد في التدبير.

وهذه الآية تعلم القلب ألا يحكم على القصة من فصلها المظلم. فالليل، مهما امتد في الإحساس، يحمل في نظام الله نهايةً إلى الضوء؛ ولا يعني هذا أن كل كرب ينقشع بالصورة التي يتناها الإنسان أو في الزمن الذي يحدده، لكن المؤمن يعلم أن تدير الله لا يتوقف عند حدود رؤيته الراهنة. قد يكون الضحى شفاءً، وقد يكون قوةً على احتمال المرض، وقد يكون فتحاً في الخارج، وقد يكون بصيرةً تولد في الداخل، وقد يتأخر تمامه إلى دار لا ليل فيها.

إن الله ﴿أَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾، والإنسان لا يملك إخراج الصباح ولو اجتمعت قواه؛ يستطيع أن يوقد مصباحاً، لكنه لا يفتح أبواب النهار على الأرض. وهذا العجز اليومي نعمة تربية؛ كل صباح يذكره بأن النور هبة، وأن انتظام الحياة ليس قائماً بإدارته. ينام وهو لا يملك ضمان الاستيقاظ، ثم ترد إليه روحه ويطلع عليه الصبح، فيمنح بداية جديدة لا يستحقها بمجرد عادته.

والضحى ليس نوراً جامداً، بل زمن انتشار الحياة ووضوح الأشياء. بعد ستر الليل تنكشف الطرق والأشكال، وكأن تعاقبهما مثال متكرر على الانتقال من الغيب إلى الشهادة، ومن الخفاء إلى الظهور. ومن كان يرى هذه العودة اليومية للنور، كيف يستبعد أن يُخرج الله الأجساد من ظلمة القبور؟

ليس تعاقب الليل والضحى هو البعث نفسه، لكنه يهيئ العقل لتصديق سنة الإحياء والظهور؛ فالكون لا يعيش على صورة واحدة، والتحويلات العظمى تحدث أمامنا حتى تقتل الألفة معناها. كل فجر تدريب للبصيرة على أن الغياب ليس فناء، وكل ربيع شاهد على أن الأرض تخفي حياة لا تراها العين.

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾

إعداد المسكن بعد بناء السقف

ثم تنزل بنا السورة من السماء إلى الأرض: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾. والدحو هو البسط والتمهيد والإعداد للانتفاع والسكنى، بما أخرج الله فيها من ماء ومرعى وثبت عليها من جبال. والمقصود هنا ترتيب دحو الأرض وتهيئتها بعد بناء السماء، ولا يلزم من ذلك أن يكون أصل خلق جرم الأرض متأخراً عن أصل خلق السماء؛ إذ قد يكون الخلق الأول سابقاً، ثم جاء الدحو والتفصيل والإخراج بعد ذلك، فتنظم الآيات ولا تعارض بينها.

وفي هذا الانتقال نرى أن القدرة التي بنت الآفاق البعيدة هي نفسها التي هيأت للإنسان موضع قدميه. ليس خلق السماء عظمةً منفصلةً عن حاجاته اليومية، بل يتصل النظام كله بإمكان حياته: سقف مرفوع، وليل وضى، وأرض مدحوة، وماء ومرعى وجبال. كأن الكون الواسع، على جلاله، قد نُظم بحيث يجد هذا المخلوق الصغير مكاناً يعيش فيه ويبتلى. والدحو يحمل معنى التهيئة؛ فالأرض قبل أن تكون مجال ملكيات وصراعات وحدود هي فراش مهيا من الله. لم يصنع الإنسان تربتها، ولا فتح منابعها الأولى، ولا أودع فيها قابلية الإنبات، لكنه يدخلها لاحقاً فيرسم خطوطاً ويقول: هذه لي. إن التملك البشري اعتبار مؤقت تضبطه شريعة الله، أما الحقيقة الأصلية فهي أن الأرض لله، والإنسان مستخلف فيها.

وحين ينسى معنى الاستخلاف يتحول العمران إلى افتراس؛ يتصرف في الأرض كأن الأجيال التالية لا حق لها، ويستنزف النعمة من غير شكر، ويقيس النجاح بمقدار ما

استحوذ عليه لا بما أصلح. أما من يرى الأرض مدحوة بأمر الله فيتعامل معها بأدب الأمانة، ويعرف أن الانتفاع لا يبيح الإفساد.

والأرض التي دحاها الله للحياة هي نفسها التي تضم أجساد الموتى، ثم يأمرها أن تخرج أثقالها. كأنها مهد وقبر وساحة بعث؛ تأتي من عناصرها، ونعيش على خيراتها، ونعود إلى ترابها، ثم نقوم منها. فكيف يستبعد ابن الأرض أن يخرج الله من أرض يراها تحيا بعد موتها كل موسم؟

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا﴾

النعمة التي تحمل الحياة في صمتها

بدأ تفصيل الدحو بالماء؛ لأنه أصل حياة الأجساد والأرض. قال: ﴿مَاءَهَا﴾، فأضاف الماء إلى الأرض من حيث خروجه من عيونها وآبارها أو جريانه فيها بعد نزوله، وكأن لكل أرض نصيبها المقدر من هذه النعمة التي تقوم عليها الحياة.

إن قطرة الماء التي تمر على الإنسان في مألوف يومه تختزن معنى يفوق سعرها في السوق؛ فهي الصلة التي أبقى الله بها جسده حيًّا، والسر الذي تجري به الحضرة في عروق النبات. يستطيع البشر نقل الماء وتخزينه وتنقيته، لكنهم لا يخلقون حقيقته من العدم، ولا يستغنون عنه مهما بلغت تقنياتهم.

وفي الماء درس في الرحمة؛ فهو لين في طبيعته، لكنه يشق الصخر بتكراره، ويهب الحياة من غير ضجيج. وما أكثر النعم التي لا تصرخ بحضورها، ولذلك ينساها الإنسان حتى تُسلب!

يرى الماء كل يوم فلا يشكره، فإذا نضب بئر أو جف حلق عرف أن ما عده تفصيلاً كان حاملاً لحياته كلها.

والماء أيضاً برهان على البعث؛ ينزل على الأرض الهامدة فتتحرك، وينفذ إلى البذور الخفية فتشق التراب. إن الإنسان الذي يرى الحياة تخرج من الأرض بواسطة ماء خلقه الله، لا يملك حجة عقلية على استحالة أن يخرج هو منها يوم النداء.

لكن الانتفاع بالماء مسؤولية؛ فالنعمة المشتركة لا ينبغي أن تتحول إلى وسيلة إذلال أو احتكار، ومن شكرها ألا يفسدها وألا يحرم المحتاج منها بغير حق. التدبير الذي يقف عند الدهشة ولا يبلغ الأخلاق ناقص؛ فعرفة أن الله أخرج الماء ينبغي أن تعيد تشكيل طريقة تعاملنا مع عطائه.

﴿وَمَرَعَاهَا﴾

الطعام الذي تصنعه الأرض بأمر ربها

قرن الماء بالمرعى؛ إذ بالماء تخرج أنواع النبات التي ترعاها الأنعام وينتفع بها الإنسان مباشرة أو من خلال ما يعيش عليها من الحيوان. والمرعى لفظ بسيط يجمع شبكة واسعة من الرزق: بذرة، وتربة، وماء، وضوء، وزمن، ونمو؛ ثم يصل الطعام إلى المائدة فينسى الإنسان الرحلة الطويلة التي سبقت اللقمة.

إننا نتعامل مع الرزق في صورته الأخيرة: سلعة معروضة أو طعاماً حاضراً، بينما يعيد القرآن نسبته إلى مراحل الأولى، إلى الإخراج الإلهي الذي لا يملكه البشر. الفلاح يحث ويذر ويسقي، وهذه أسباب مأمور بها، لكنه لا يخلق قابلية البذرة للانشقاق، ولا يأمر الجذر أن

يتجه في ظلمته نحو الغذاء، ولا يكتب في الورقة قانون البناء. يعمل الإنسان على ظاهر العملية، ويجري الله سر الحياة في باطنها.

وهذا لا يلغي دور البشر، بل يضعه في موضعه الصحيح؛ فالعمل سبب وشرف ومسؤولية، لكنه ليس رباً للنتيجة. ومن هنا يتولد التواضع عند النجاح والصبر عند تعذر الثمرة؛ يبذل المرء وسعه، ثم يعرف أن الإخراج لله.

وفي المرعى معنى الكفاية التي تسبق سؤال الإنسان؛ فقد أعد الله في الأرض أسباب الغذاء قبل أن يأتي البشر إليها. نحن ندخل عالماً سبقنا فيه العطاء: الهواء موجود، والماء جارٍ، والتربة مهيأة، والسنن عاملة. إن وجود الإنسان نفسه محاط بضیافة إلهية سابقة، وكل شكر يقدمه يأتي بعد فضل لا يستطيع إحصاء بداياته.

لكن الإنسان قد يحول المرعى الذي جعله الله متاعاً للجميع إلى ميدان احتكار وتبذير، فيجوع بعض الناس بينما يلقي الفائض عند آخرين. وهنا لا يكون الخلل في قلة أصل العطاء دائماً، بل في فساد التوزيع وشهوة الاستئثار. فالآية التي توقظ الامتنان ينبغي أن توقظ العدل أيضاً؛ لأن من عرف أن الرزق عطية الله استحي أن يجعل منها أداة لسحق عباد الله.

﴿وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا﴾

الثبات الموهوب لا الثبات الذاتي

بعد الماء والمرعى تأتي الجبال: ﴿وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا﴾؛ أي أثبتها وأحكم وضعها، فجعلها من عناصر استقرار الأرض ونظامها. والإرساء يستدعي صورة السفينة حين تستقر بعد حركة، وكأن الجبال مراسي ضخمة أودعها الله في بنية الأرض وفق حكمته.

وقد رآها الإنسان رمزاً للثبات والقوة، لكنه ينبغي ألا ينسى أن ثباتها مُرسى، لا ذاتي، الله هو الذي أرساها، وهو الذي ينسفها يوم القيامة، فتكون قاعاً صَفْصَفاً. وهذا المعنى يهدم عبادة المظاهر؛ فالشيء قد يبدو ثابتاً لأنه قائم منذ أزمنة طويلة، لكن طول بقائه لا يمنحه استقلالاً عن مشيئة الله.

كم من نظام بدا للناس كالجبل ثم انهار، وكم من قوة حسبها أهل زمانها قدراً لا يتغير ثم صارت خبراً في كتاب! إن المؤمن لا يخدع بالحجم وحده؛ ينظر إلى الجبل فيرى عظيمته، ثم يرى وراءها افتقاره إلى من أرساه. وينظر إلى الطاغية فيرى أدواته، ثم يتذكر فرعون الذي قال: أنا ربكم الأعلى، فأخذه الله.

والجبال درس في وظيفة القوة؛ إنها ثابتة، لكن ثباتها جزء من صلاح الحياة لا وسيلةً للعلو على ما حولها. وكذلك قوة الإنسان ينبغي أن تكون مرساةً للحق، يحمي بها الضعيف ويستقر بها العدل، لا صخرةً تُلقى على صدور الناس. القوة التي لا تؤدي وظيفة الرحمة تحتل عن الغاية التي من أجلها وُهبَت.

وفي انتقال السورة من الراجفة إلى الجبال المرساة مفارقة بديعة: الأرض مستقرة الآن لأن الله أرساها، وسترجف يوم يأذن لها أن ترجف. فلا الاستقرار دليل على استحالة القيامة، ولا الراجفة خروج عن التدبير؛ كلاهما يقع بأمر الله. وهو ما يمنح المؤمن فهمًا متوازنًا: ينتفع بثبات العالم ولا يتوهم خلوده، ويستعد لانقلابه من غير أن يهجر مسؤولية البناء فيه.

﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنعَامِكُمْ﴾

الكون المستخّر والإنسان الممتحن

تُختم لوحة الخلق ببيان الغاية القريبة من هذه النعم: ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾. أي جعل الله الماء والمرعى وما هيأه في الأرض منفعةً لكم ولأنعامكم إلى أجل. والمتاع ما يُنتفع به زمنًا ثم ينقضي؛ فاللفظة تحمل النعمة وحدّها في آن واحد: هو عطاء حقيقي، لكنه مؤقت.

وهذا هو التوازن القرآني في النظر إلى الدنيا؛ لا ينكر متاعها، ولا يحرم طبيعتها، لكنه لا يسمح للإنسان أن يخلط المتاع بالمصير. الماء متاع، والمرعى متاع، والأرض متاع، والجسد الذي ينتفع بها متاع؛ أما الغاية فلا تقف عند الاستهلاك. لقد هيأ الله الحياة كي يقوم الإنسان بالعبودية والاستخلاف، لا كي يحوّل عمره إلى مطاردة لا تنتهي لما يفيى.

وذكر الأنعام إلى جوار الإنسان يحدّ من غروره؛ فالمرعى الذي ينتفع به ليس خاصًا به، وفي الأرض مخلوقات أخرى قدّر الله أرزاقها. الإنسان مكّرم بالعقل والتكليف، لكنه ليس مرخصًا له أن يتعامل مع الوجود كأن ما سواه بلا حرمة أو وظيفة. ومن تمام الاستخلاف الرفق بالحيوان، وحفظ التوازن، وعدم الإفساد فيما جعله الله معاشًا للمخلوقات.

كما تكشف الآية شبكة الاعتماد المتبادل؛ الإنسان ينتفع بالأنعام، والأنعام تنتفع بالمرعى، والمرعى يخرج بالماء، والماء يجري وفق النظام الذي أقامه الله. لا كائن مستقل بذاته، ولا رزق ينشأ من فراغ. إن الوجود يعلم الإنسان التواضع من خلال حاجته؛ لقمة واحدة تجمع له عمل الأرض والسماء والنبات والحيوان والبشر، ثم يحملها إلى فمه كأنها إنجازه الفردي.

وحين يقول الله: ﴿لَكُمْ﴾ فهو يذكّر بالفضل، وحين يقول: ﴿مَتَاعًا﴾ يذكّر بالنهاية. ومن جمع المعنيين شكر النعمة ولم يعبدها؛ أما من رأى «لكم» ونسي «متاعًا» استولى عليه الغرور، ومن رأى الفناء ونسي العطاء وقع في جحود الدنيا بدل استعمالها في طاعة الله.

من السماء إلى اللقمة

تتحرك الآيات من أضخم المشاهد إلى أقربها: السماء وبنائها، ارتفاعها وتسويتها، الليل والضحى، الأرض ودحوها، الماء والمرعى، الجبال وإرسائها، ثم حاجات الإنسان وأنعامه. كأن السورة تربط اللقمة التي في اليد بأطراف الكون؛ فما يأكله الإنسان لا ينفصل عن السماء والضوء والماء والأرض.

وهذا الترابط يعيد تعريف الرزق؛ ليس المال وحده هو الرزق، بل النظام الذي يجعل المال قادراً على شراء طعام موجود أصلاً. قد يملك الإنسان خزائن من النقد، لكنه إن انقطع الماء أو فسدت الأرض لم تطعمه الأرقام. إن الحضارة الحديثة قد تبعد الإنسان عن رؤية منابع النعمة، لكن القرآن يعيده إلى الأصل: ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾.

وإذا كان الله قد أقام هذا النظام كله لمتاع محدود، أفيعجزه أن ينشئ داراً أخرى للجزاء الدائم؟ إن مشهد الخلق ليس فقط برهاناً على القدرة، بل تمهيد للمسؤولية؛ فالذي أنعم سيحاسب على النعمة، والذي يتخّر الكون للإنسان لم يتركه بلا غاية، والذي جعل الأرض ميداناً للعمل سيجعل الآخرة ميداناً لظهور ثماره.

الجواب الذي لم يُنطق

سألت السورة: ﴿أَلَمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ﴾، ثم لم تذكر جوابهم؛ لأن لوحة الخلق كلها هي الجواب. السماء المبنية تحيب، وارتفاعها وتسويتها يجيبان، والليل والضحى، والأرض والماء والمرعى والجبال؛ كل عنصر يقول: إن الذي أوجد هذا لا يعجز عن إعادتك.

لكن البرهان لا يقف عند إثبات الإمكان؛ إنه يظهر نظرة الإنسان إلى نفسه. أنت لست مهماً في كون عشوائي، ولست سيداً مطلقاً في عالم تملكه؛ أنت مخلوق داخل بناء الله،

تعيش من مائه ومرعاه، وتستند إلى أرضه، ويحملك نظام لم تصنعه. هذه الحقيقة تمنحك الأمن من العبث، وتسلب منك الغرور في الوقت نفسه.

وإذا علم الإنسان أن كل ما حوله متاع، اتجه السؤال إلى ما بعد المتاع: ماذا يحدث حين ينتهي الأجل، وتطوى صفحة الأرض التي دحاها الله للابتلاء؟ هنا تأتي الآية التالية كصوت يعلو على كل أصوات الدنيا: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى﴾.

السماء التي بُنيت ستتغير، والأرض التي دُحيت ستبدل، والجبال التي أُرسيّت ستنسف، والماء والمرعى اللذان كانا متاعاً ينتهي زمنهما. وعندئذ لا يبقى للإنسان ما كان ينتفع به، بل ما كان يفعله؛ لا ما جمعه من المتاع، بل ما قدّم من العمل. هناك يتذكر الإنسان سعيه كله، وتبرز الجحيم لمن يرى، وينقسم المصير بحسب السؤال الذي غفل عنه طويلاً: هل طغى وآثر الحياة الدنيا، أم خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى؟

الفصل الثامن

الطَّامَّةُ الْكُبْرَى

حين ينتهي المتاع ولا يبقى إلا السعي

﴿إِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴿١﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٢﴾ وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ﴿٣﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٤﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٥﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٦﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ ﴿٧﴾ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٨﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٩﴾﴾

خُتِمَتِ الآيَاتُ السابقة بقول الله تعالى: ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنعَامِكُمْ﴾، ثم جاءت الفاء لتطوي زمن المتاع كله: ﴿إِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾. فالدنيا، على اتساع عمرانها وتنوع لذاتها، مرحلة محدودة؛ والماء والمرعى والجبال وما يملكه الإنسان ويستمتع به كله واقع تحت اسم واحد: المتاع. ثم تأتي الطامة فتعلو على كل شيء، وتغمر بهولها كل أمر كان يملأ القلب حتى لا يترك فيه موضعاً لغيره.

كان للإنسان في الدنيا هموم يظن أن لا شيء أكبر منها، ورغبات تملأ أفقه حتى تبدو له غاية الوجود، ومخاوف تستولي عليه كأنها النهاية؛ فإذا جاءت الطامة ظهر أن ما استغرق عمره لم يكن إلا تفصيلاً عابراً. ليس معنى ذلك أن آلام الدنيا غير حقيقية، أو أن مسؤولياتها لا تستحق العناية، بل إن القيامة تعيد وضعها داخل المشهد الكامل؛ فتمنع اللحظة من أن تبتلع الأبد، والمتاع من أن يحجب المصير.

﴿فَإِذَا جَاءَتْ﴾

الموعِد الذي يتقدم وإن غفل عنه الإنسان

يعبر القرآن عن القيامة بالمجيء: ﴿جَاءَتِ الطَّامَّةُ﴾، وفي هذا تحويل لها من معنى جامد إلى حقيقة مقابلة تتحرك نحو الإنسان. قد يظن المرء أنه واقف في مكانه والآخرة بعيدة، لكن كل يوم يمضي يحملها إليه ويحمله إليها. نحن لا نحتاج إلى أن نسير بإرادتنا نحو هذا اللقاء؛ فالزمن نفسه يسوقنا، والعمر يتناقص حتى حين نظن أننا نضيف إليه يوماً جديداً.

ولفظه ﴿إِذَا﴾ تفيد تحقق الوقوع؛ ليست الطامة احتمالاً بين احتمالات، ولا تصوراً يُعرض على العقل ليختار تصديقه بحسب مزاجه، بل موعداً آتياً. والفرق بين المؤمن والمنكر ليس أن أحدهما يتجه إلى القيامة والآخر ينجو منها؛ كلاهما ذاهب إليها، وإنما الفرق أن الأول عرف الطريق فاستعد، والثاني أغمض عينيه وهو يُحمل إلى الغاية نفسها.

إن إنكار الموعد لا يؤخره، كما أن غفلة المريض عن مرضه لا تصنع له عافية. والحقيقة لا تحتاج إلى تصديقنا كي تكون حقيقة؛ نحن الذين نحتاج إلى تصديقها حتى نغير حياتنا قبل أن تأتي. فمن رحمة الله أنه جعل خبر الطامة يسبق مجيئها، ووصفها لنا ونحن نملك القدرة على التوبة، كي لا تكون معرفتنا الأولى بها لحظة لا ينفع فيها العمل.

وكل آية في الوعيد هي في الدنيا صورة من الرحمة؛ لأن الإنذار المبكر يمنح الإنسان فرصة النجاة. إن الطبيب الذي يخفي الخطر مجاملة لا يرحم مريضه، والقرآن لا يسكن الغافل بكلمات تطيل نومه، بل يوقظه بالحقيقة، لأن ألم اليقظة أرحم من راحة تنتهي إلى الهلاك.

﴿الطَّامَةُ الْكُبْرَى﴾

الحقيقة التي تعلو على كل ما سواها

الطامة من الطمّ، وهو الغمر والعلو والتجاوز، يقال: طمّ الماء إذا علا وغمر. فالقيامة تطمّ على كل داهية، وعلو هولها على كل هول، حتى لا تبقى مصيبة دنيوية قادرة على الاحتفاظ بضخامتها القديمة في وعي الإنسان. ثم وُصفت بـ﴿الْكُبْرَى﴾ تأكيداً لعظمتها التي لا تُقاس بما عرفه البشر من كوارث.

وقد كانت الراجفة في أول السورة تهدم انتظام العالم، أما الطامة فتجمع هول الانقلاب الكوني وانكشاف الأعمال وبدء الجزاء. إنها ليست اضطراب المادة وحدها، بل انكشاف المعنى؛ ليس الفزع لأن الجبال نُسفت فقط، بل لأن الإنسان صار أمام ما صنعه بغير حجاب.

وفي الحياة طامات صغيرة تطفئ على وعي صاحبها: فقد، أو هزيمة، أو فقر، أو انكسار. وقد يعجز القلب في ساعة الألم عن رؤية شيء وراء مصيبته. والقرآن لا يطالبه بإنكار وجعه، لكنه يفتح له نافذة على الأكبر حتى لا تتحول المصيبة المؤقتة إلى تفسير نهائي للوجود. فما من ألم دنيوي إلا وله نهاية، وما من مظلمة إلا وراءها ميزان، وما من صبر خفي إلا سيظهر أثره حين يتذكر الإنسان ما سعى.

كما أن الطامة الكبرى تعيد تعريف النجاح. قد يموت إنسان في نظر الناس خاسراً؛ لم يبلغ منصباً، ولم يجمع مآلاً، ولم يترك ضحيجاً حول اسمه، لكنه يدخل الطامة بقلب خاف مقام ربه ونفسٍ جاهد هواها، فإذا الخسارة التي رآها الناس نجاة. وقد يأتي آخر محمولاً على سبيل

حافل بالتصفيق، فإذا الجحيم هي المأوى. ليس ميزان الآخرة إنكاراً لقيمة الإنجاز، بل سؤالاً عن جهته وأخلاقه وغايته: ماذا صنعت، ولمن صنعت، وبأي طريق؟

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾

الذاكرة التي تستعيد ما دفنه الهوى

من أشد مشاهد القيامة رهبة أن الإنسان يتذكر. فما استطاع أن يدفنه في الدنيا يعود، وما غطاه بالتبرير ينكشف، وما حسب أنه عبر وانتهى يجده حاضراً في ذاكرته وصحيفته. ﴿يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾؛ لا ما تمنى، ولا ما ادعاه عن نفسه، ولا الصورة التي نجح في تسويقها للناس، بل سعيه الفعلي.

والتذكر هنا ليس استعادةً باردة لمعلومات الماضي، بل رؤية للعمل في ضوء نتائجها. في الدنيا كان الإنسان يرى الشهوة قريبةً والجزاء بعيداً، والمنفعة حاضرةً والتبعة غائبة؛ أما يوم القيامة فيتذكر الفعل ومعناه ومآله في لحظة واحدة. تنكشف الخيوط التي ربطت اختياراته بمصيره، فيعلم لماذا أوصله الطريق إلى موضعه.

إن الإنسان في الدنيا ماهر في النسيان الانتقائي؛ يتذكر إساءة الناس إليه، وينسى إساءته إليهم، ويحفظ ما قدمه من خير، وينسى الأذى الذي خالطه، ويستدعي أعذاره كلها واجه خطأه. وقد لا يكون النسيان عجزاً في الذاكرة، بل آلية لحماية صورة الذات من الحقيقة. لكن يوم القيامة تسقط سلطة الإنسان على روايته الشخصية؛ لا يعود هو محرر القصة الذي يحذف منها ما يخرجه، بل يراها كما عليها الله.

وقد اختارت الآية لفظ ﴿سَعَى﴾، لا مجرد «فعل»؛ لأن السعي يدل على الحركة المقصودة التي بذل فيها الإنسان جهده وعمره. إن حياة المرء في حقيقتها سعي متصل، حتى سكونه قد يكون جزءاً من اتجاهه: يسعى إلى الله أو إلى هواه، إلى حق أو باطل، إلى نجاة أو مأوى مؤلم. وحين يتذكر سعيه، يرى أين ذهبت طاقته، وفي أي طريق استهلك قلبه، ولأي غاية أنفق أياماً لم تكن قابلة للاسترداد.

كم من إنسان يملك قائمةً طويلة من المشاغل، لكنه لا يعرف ما القضية الكبرى التي يسعى إليها! يتحرك كثيراً، ويصل قليلاً؛ لأن الوسائل تكاثرت حتى أخفت الغاية. تأتي الطامة فتختصر الحياة كلها في سؤال: ﴿مَا سَعَى﴾. أي أثر أرسلته أمامك؟ وما الشيء الذي كان يستحق أن ينقضي عمرك فيه؟

ولا يضيع السعي الصالح إن لم يكتمل أثره في الدنيا؛ فقد يموت صاحب مشروع قبل بلوغ غايته، أو يقول كلمة حق لا يرى ثمرتها، أو يربي إنساناً ثم يرحل قبل أن يشهد نضجه. الله يحاسب على صدق السعي ضمن ما يملك العبد، لا على النتائج التي استأثر سبحانه بتقديرها. وهذه طمأنينة للعاملين: المطلوب وفاء الخطوة لا امتلاك المستقبل.

وفي المقابل، لا تعفي النية الحسنة من مراجعة الطريق؛ فقد يدعي الإنسان مقصداً شريفاً ويسعى إليه بوسائل ظالمة، كأن صلاح الغاية يطهر كل وسيلة. لكن السعي الذي سيُذكر يشمل المقصد والطريق معاً؛ فالحق لا يحتاج إلى خيانة كي ينتصر، والعدل لا يُبنى بالظلم، والدعوة إلى الله لا تزكو إذا غدّتها أمراض الكبر والتشفي.

التذكر الآن رحمة

إذا كان الإنسان سيتذكر سعيه يوماً، فإن النجاة تبدأ بأن يتذكره الآن. أن يجلس مع نفسه قبل أن تجلس أمام الحساب، ويقرأ يومه قبل أن تُفتح صحيفته، ويسأل: لماذا قلت؟ ولماذا سكت؟ وما الذي أردت حقاً من هذا الموقف؟

المحاسبة الذاتية ليست جلدًا للنفس ولا إغراقاً في الشعور بالذنب، بل استرداد لقدرة التوجيه. فالماضي الذي يُراجع بصدق يمكن أن يصير توبة، أما الماضي الذي يُدفن بالتبرير فيبقى قادراً على تكرار نفسه. والإنسان الذي يخاف رؤية عيبه يحكم على نفسه بأن يعيش داخله أطول.

إن التوبة تمنح الذاكرة معنى جديداً؛ لا تحو وقوع الذنب من التاريخ، لكنها تنقل الإنسان من الإصرار إلى الندم، ومن الهرب إلى الاعتراف، ومن فساد الأثر إلى إصلاح ما يمكن. وقد يصير الذنب بعد توبة صادقة باباً لتواضع وحذر لا يعرفهما من أُعجب بطاعته. ورحمة الله لا تكتفي بأن تغفر، بل تبدل السيئات لمن صدق إيمانه وتوبته وعمله الصالح.

فما دام التذكر في الدنيا، فالباب مفتوح؛ أما تذكر الطامة فهو تذكر بعد انتهاء السعي. هناك يعرف الإنسان، لكنه لا يستطيع أن يضيف حسنة أو يحذف سيئة. ولهذا كان وجع المراجعة اليوم نجاةً من وجع الندم غداً.

﴿وَبَرَزْتُ ابْتِغِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾

المصير الذي كان محبوباً فصار مشهوداً

التبريز هو الإظهار بعد الخفاء؛ فالجحيم موجودة، لكنها محجوبة عن حواس أهل الدنيا، ثم تُظهر يوم القيامة إظهاراً لا يبقى معه مجال لإنكارها: ﴿لَنْ يَرَى﴾. وما كان خبراً يُصدق بالغيب يصبح مشهداً تعينه الأبصار.

في الدنيا كان الإنسان يستطيع أن يصرف نظره عن آيات الوعيد، وأن يختار من الخطاب ما يريحه، وأن يعيش كأن النار مجاز بعيد لا يتصل بخياراته. أما في ذلك اليوم فلا يملك إدارة المشهد؛ تبرز الجحيم، وتسقط المسافة بين المعرفة والرؤية.

وفي المبني للجهنم: ﴿بُرْزَتِ﴾ تركيز على الحدث نفسه وهوله؛ لقد ظهرت الجحيم، وبدا المصير الذي طالما حجبته الإنسان عن قلبه. وليس التعبير: لمن كان يرى، بل ﴿لَنْ يَرَى﴾؛ لأن الرؤية يومئذ حاضرة قاهرة، يشترك فيها من صدق بالغيب ومن كذب، لكن أثرها يختلف: المؤمن كان يراها ببصيرته فاستعد، والمنكر لا يراها إلا بعد أن صارت أمام بصره.

والإيمان بالغيب هو أن تمنح الحقيقة الغائبة عن الحواس أثراً في السلوك يساوي يقينك بما تراه. فالذي يوقن بالنار لا يتعامل معها بوصفها فكرة بعيدة، بل يجد ظلها التحذيري عند لحظة الاختيار؛ لا يعيش مذعوراً يأساً، وإنما يقظاً، يجمع بين الخوف والرجاء. والخوف الذي لا يصحبه رجاء قد يقود إلى القنوط، كما أن الرجاء الذي لا يضبطه خوف قد يتحول إلى أمن كاذب.

إن إبراز الجحيم ليس مشهد قسوة منفصلاً عن العدل؛ فهي مأوى من طغى وآثر الحياة الدنيا بعد قيام الحجة. والله لا يظلم مثقال ذرة، ولا يعذب أحداً بجريرة غيره، ولا يساوي بين التائب المنيب والمستكبر المعاند. وحين يذكر القرآن النار، فهو يضع للفعل الأخلاقي وزناً نهائياً، ويعلن أن الشر ليس لعبة تنتهي بانتهاء لذتها.

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾

فرعون يتحول من شخص إلى قانون

بعد قصة فرعون، تعود كلمة الطغيان: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾. لم تقل الآية: فأما فرعون، بل عممت الوصف؛ لأن فرعون كان المثال التاريخي، أما القانون فيشمل كل من تجاوز حد العبودية. وهنا نتصل القصة بالمصير اتصالاً مباشراً: ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾ في وصف فرعون، و﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ في ميزان الآخرة.

إن الطغيان لا يشترط أن يبلغ صاحبه دعوى الربوبية الصريحة؛ فكل تجاوز متعمد لحد الله يحمل من روح الطغيان بقدره. وقد يكون طغياناً في الاعتقاد، أو في الحكم، أو في المال، أو في الشهوة، أو في علاقة المرء بمن يضعف أمامه.

لكنه هنا ليس زلةً عابرة تاب منها صاحبها، بل طريقاً اختاره الإنسان حتى صار وصفاً له: ﴿مَنْ طَغَى﴾. فالقرآن يفرق بين بشر يضعف ثم يعود، ومستكبر يجعل التجاوز منهجاً ويمضي عليه إلى اللقاء. لا يعلق الإسلام باب النجاة بسبب سقطة، لكنه لا يحول الرحمة إلى كلمة تبرر الإصرار.

وفي مقابلة الطغيان بخوف مقام الرب تظهر جذور الطريقتين؛ فالطاغي يتصرف كأن لا مقام ينتظره، والخاشي يستحضر ذلك المقام فيضع لنفسه حداً. الطغيان في جوهره نسيان للموقف، والتقوى استحضار له.

﴿وَأَثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

ليست المشكلة في الدنيا بل في تقديمها

لم تقل الآية: وعاش في الحياة الدنيا، فالجميع يعيشون فيها، ولم تقل: وانتفع بها، فقد جعل الله خيراتها متاعاً، وإنما قالت: ﴿وَأَثَرُ﴾؛ أي قدمها واختارها ورجحها على الآخرة عند التعارض.

هذا من أدق الموازين القرآنية؛ فالدنيا ليست مذمومة لذاتها، وإنما يفسد موقعها حين تتحول من طريق إلى غاية، ومن مزرعة إلى وطن نهائي، ومن وسيلة طاعة إلى معبود يُقدَّم له الدين والضمير. قد يملك المؤمن مآلاً كثيراً ولا يؤثر الدنيا إذا بقي المال في يده ولم يحتل قلبه، وقد لا يملك الفقير شيئاً وتكون الدنيا أكبر همه.

الإيثار يظهر في لحظة الثمن: حين يكون الصدق مكلفاً والكذب مربحاً، والعدل مؤلماً والظلم نافعاً، والعفة حرماناً عاجلاً والشهوة متاحة، فأبي الطريقين يُقدَّم الإنسان؟ ليست حقيقة الإيمان فيما نقوله زمن السعة وحده، بل فيما نختاره حين نتعارض المصلحة القريبة مع رضا الله.

وقد قرنت السورة الطغيان بإيثار الدنيا؛ لأن من جعل الدنيا الغاية احتاج إلى تجاوز الحدود لتحصيل أكبر قدر منها. فالآخرة تضع قيوداً أخلاقية على القوة والرغبة، أما من أسقطها من حسابه فلا يبقى أمام شهوته إلا حدود قدرته. فإذا استطاع أن يأخذ أخذ، وإذا قدر على الظلم ظلم، ما لم يمنعه قانون أو خوف أو مصلحة.

وإيثار الدنيا لا يقع دائماً في صورة قرار ضخم؛ قد يتكون من اختيارات صغيرة تتكرر حتى تحدد وجهة القلب. تسويف صلاة، وتبرير كذبة، وسكوت عن حق حفاظاً على منفعة، وتقدير رضا الناس على رضا الله؛ ثم تتراكم هذه التفاصيل حتى يصبح المرء دنيوياً في ميزانه وإن بقيت على لسانه مفردات الآخرة.

﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾

المأوى الذي يناقض معناه

المأوى هو الموضع الذي يرجع إليه الإنسان ويستقر فيه، وهو لفظ يرتبط عادةً بالأمان والستر، لكن الآية تجعله هنا للجحيم؛ فتبلغ المفارقة غايتها. من طلب الأمان في الدنيا بعيداً عن الله انتهى إلى مأوى لا أمان فيه، ومن اتخذ من المال أو السلطان ملجأً اكتشف أن الملجأ المؤقت لم يمنعه من المصير.

وجاء ضمير الفصل: ﴿هِيَ الْمَأْوَى﴾ للخصر والتأكيد؛ كأن المأوى الزائفة التي احتمى بها الطاغى سقطت كلها، ولم يبق إلا المأوى الذي صنعه بسعيه. القصر لم يعد مأوى، والحرس لم يعودوا مأوى، والجمهور الذي حشره لم يعد مأوى.

إن الجحيم ليست منزلاً فرض على الإنسان بلا صلة بطريقه، بل نهاية تتناسب مع اختياره؛ أثر الحياة الدنيا كأنها المأوى، فظهرت حقيقتها متاعاً زائلاً، ثم وجد الجحيم هي المأوى. ومع ذلك يبقى عدل الله منزهاً عن مقاييس البشر المحدودة؛ فهو أعلم بعباده وحججهم وقدراتهم، ولا يملك أحد أن يعين مصير الأفراد بغير دليل من الوحي.

والغرض من الآية ليس أن ينشغل المؤمن بتوزيع الناس على النار، بل أن يخاف على نفسه من الطريق المؤدي إليها. إن من علامات قسوة القلب أن يقرأ الوعيد فيراه دائماً متجهاً إلى غيره، كأنه يحمل وثيقة أمان خاصة. أما الخاشع فيسمع الآية فتردّه إلى نفسه: هل في اختياري طغيان؟ وهل أقدم الدنيا حين تمتحن المبادئ؟

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾

الخوف الذي يعيد للنفس ميزانها

في الجهة الأخرى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾. والمقام يحتمل مقام العبد بين يدي ربه للحساب، ويحتمل قيام الله على عباده بالمراقبة والعلم والحفظ والجزاء؛ والمعنيان يلتقيان في قلب يعلم أنه مكشوف لله الآن، وسيقف بين يديه غداً.

لم تقل الآية: من خاف الناس، ولا من خاف على صورته وسمعته، بل من خاف مقام ربه. فصدر الضبط ليس عين المجتمع وحدها؛ قد يختفي المرء عن الناس، ويملك فرصة لا تُكتشف، لكنه يستحضر نظر الله. هنا تبلغ الحرية الأخلاقية ذروتها: أن تختار الحق حين لا يجبرك عليه أحد.

والخوف من مقام الله لا يحطم النفس، بل يحفظها من الاستعباد لهواها. إنه خوف يرفع؛ لأن من خاف الله تحرر من الخوف المذل من سواه. لا يعني أنه لا يشعر بالرهبة البشرية، فالأنبياء بشر، لكن خوف المخلوق لا يصبح المرجع الأعلى الذي يغيّر لأجله الحق.

واختيار لفظ ﴿رَبِّهِ﴾ يضمن الخوف معنى القرب والرعاية؛ فهو لا يخاف قوةً غريبة عنه، بل يخاف مقام ربه الذي أنشأه ورباه وأنعم عليه. ولذلك تمتزج الخشية بالحياء والمحبة؛ يستحي أن يقابل النعمة بالعصيان، ويخشى أن يسقط من مقام القرب، ويرجو رحمة من عرفه رباً رحيماً.

وقد قال الله في قصة موسى: ﴿فَنَحْنِي﴾، ثم قال بعدها: ﴿لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى﴾، وها هو يقول: ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾. فالخشية هي الخيط الناظم للنجاة في السورة؛ عرضت على فرعون فرفضها، وانتفع بالعبرة من يحملها، وفاز بالجنة من تحولت عنده إلى مجاهدة للهوى.

﴿وَنَبَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾

البطولة التي لا يصفق لها أحد

لم تكتف الآية بالخوف الشعوري، بل نقلته إلى أثر عملي: ﴿وَنَبَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾. فكل خوف لا يضع حداً لسلوك قد يتحول إلى انفعال مؤقت. صدق الخشية يظهر حين تقول النفس: أريد، فيقول الإيمان: ليس كل ما تريد مباحاً.

والهوى هو ميل النفس إلى ما تشتهيه، ولا يُذم كل ميل طبيعي في ذاته؛ فالإنسان يحب وينفر ويرغب، وهذه من فطرته. وإنما الخطر حين يتحول الهوى إلى قائد مستقل عن هداية الله، فيصبح الشيء حقاً لأنه محبوب، وباطلاً لأنه مؤلم، ويصير الشعور مصدر التشريع.

لم تقل الآية: وقتل النفس، ولا: ألغى رغباتها، بل: ﴿نَبَى النَّفْسَ﴾. وهذا يعني أن المؤمن يعيش مع نفسه في حوار وتربية وضبط؛ يعترف برغباتها لكنه لا يمنحها حق السيادة. يليي الحلال منها، ويهذب المفرط، ويمنع المحرم. فلا الرهبانية التي تنكر الفطرة هي المنهج، ولا الانفلات الذي يقدرها.

والتعبير يجعل الإنسان ناهياً ونفسه منهية؛ كأن في داخله مقاماً أعلى يحتكم إلى الوحي، وميلاً يحتاج إلى القيادة. هذه المسافة بين المرء وهواه هي بداية الحرية؛ فالعبد لهواه لا يستطيع أن

يقول لرغبته: لا، ولو ادعى أنه يفعل ما يريد. أما الحر فهو الذي يقدر على مخالفة ما يريد حين يعلم أن رضا الله في غيره.

وما أشق هذه البطولة؛ لأنها تقع بعيداً عن التصفيق. قد يترك الإنسان شهوة لا يعلم بها أحد، ويكظم غضباً كان قادراً على إطلاقه، ويرد مالأً يستطيع إخفاءه، ويغض بصراً لا يراقبه فيه بشر. لا يرى الناس المعركة، لكن الله يراها، وهي في ميزان الآخرة أعظم من انتصارات ظاهرية كثيرة.

ونهي النفس ليس موقفاً يحدث مرة واحدة؛ فالهوى يغير أشكاله، وقد يترك الإنسان شهوة حسية ثم يقع في شهوة المدح، أو يزهّد في المال ويطلب سلطاناً على القلوب، أو يحارب هوى ظاهراً بهوى أخفى منه. ولذلك تحتاج التزكية إلى يقظة مستمرة، فالعدو الداخلي يتقن استعمال لغة الفضيلة.

وقد يدخل الهوى في الموقف الديني نفسه؛ يدافع المرء عن الحق، لكن لأنه يمنحه تفوقاً، أو يشتد على خصمه لا غيره لله بل انتقاماً لنفسه، ثم يصعب عليه التمييز. والميزان أن يكون مستعداً لقبول الحق ممن لا يحب، والاعتراف بخطئه أمام من خاصم، وتطبيق المعيار على القريب والبعيد وعلى نفسه قبل غيره.

لماذا قال: ﴿النَّفْسُ﴾ ولم يقل: نفسه؟

في تعريف النفس معنى الجنس؛ كأنها هذه الحقيقة البشرية المعروفة بميولها، فالطريق واحد لكل سالك: لا نجاة بلا مجاهدة. ليس أحد فوق الامتحان، ولا يبلغ الإنسان مقاماً يستغني فيه عن مراقبة نفسه.

وفي التعبير أيضاً شيء من التجريد الذي يعين على المحاسبة؛ فالمرء يحتاج أحياناً أن ينظر إلى نفسه كما ينظر إلى شخص يتولى تربيته، فلا يصدق كل ما تقوله، ولا يكرهها حتى يحطمها، بل يقودها بحزم ورحمة. النفس ليست عدواً محضاً؛ هي الوعاء الذي يزكو فيفلح، أو يُدسّ فيخيّب. والمطلوب إنقاذها من هواها، لا الانتقام منها.

والنهي يستلزم معرفة؛ فلا يستطيع الإنسان أن ينهى نفسه على بصيرة إن لم يتعلم حدود الله، وإلا فقد يحرم عليها ما أحل الله، أو يبيع لها ما حرّم، أو يخلط تقاليد المجتمع بالدين. فجاهدة الهوى ليست حرباً غامضة ضد كل متعة، بل التزام بهداية الوحي في توزيع الرغبات داخل حدودها.

﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾

من ضيق المجاهدة إلى سعة القرار

يقابل القرآن المأوى بالمأوى: الجحيم لمن طغى وآثر الدنيا، والجنة لمن خاف ونهى النفس. وجاء التأكيد نفسه: ﴿هِيَ الْمَأْوَى﴾، لكن ما أوسع الفرق بين القرارين! هنا مأوى يناقض الأمان، وهناك مأوى تتحقق فيه معاني الأمن والقرب والرضوان.

والجنة جزاء يلائم الطريق؛ من منع نفسه بعض ما تهوى لله لم يُحرم، بل أدخر الله له ما لا عين رأت. ومن ضيق على شهوته حين خرجت عن الحد، فتح الله له داراً لا تضيق فيها الرغبات الطاهرة ولا يخالط نعيمها ندم أو فناء.

إن النفس قصيرة النظر؛ ترى لذة المعصية حاضرة، وترى الجنة خيراً بعيداً، ولذلك تحتاج إلى الخشية كي تعيد ترتيب الزمن. ما تركه الله ليس ضياعاً، وما تصبر عنه ليس فراغاً؛

أنت تنقل رغبتك من صورة ناقصة مؤقتة إلى عطاء كامل باقٍ. وليس كل حرمان خسارة، فقد يكون بعض المنع حماية، وبعض التأخير تربية، وبعض الترك بناءً للحرية.

والجنة فضل من الله قبل أن تكون ثمنًا مكافئًا للعمل؛ فأعمال العباد محدودة، ونعيم الجنة أبدي، ولا يدخلها أحد بمجرد عمله استقلالاً عن رحمة الله. لكن الله جعل الخشية والمجاهدة أسباباً لرضوانه، ووعد ألا يضيع سعي من قصده. فالمؤمن يعمل ويرجو، ولا يُعجب بطاعته، ويعلم أن توفيقه لنهي النفس نعمة تحتاج إلى شكر.

طريقان يبدآن من القلب

تختصر هذه الآيات المصير في طريقين:

طغيان وإيثار للدنيا، فنهايتها الجحيم.

خوف من مقام الله ونهي للنفس عن الهوى، فنهايتها الجنة.

وليس التقابل بين إنسان يملك شهوات وآخر بلا شهوات، بل بين من اتخذ هواه قائداً ومن جعله منقاداً لله. وليس بين من أخطأ قط ومن لم يخطئ، بل بين من طغى وأصرّ، ومن خاف فرجع وجاهد. فباب الطريق الثاني مفتوح للتائبين، ولا يُغلقه ماضٍ إذا صدق العبد في عودته.

ويبدأ الطريقان في موضع لا يراه الناس: القلب. هناك يقرر الإنسان أيهما أكبر في نظره: الدنيا أم مقام ربه؟ ثم تتحول الإجابة إلى تفاصيل الحياة. فمن عظمت الدنيا في قلبه وجد لها دائماً مبرراً تتجاوز به الحدود، ومن عظم مقام الله استطاع أن يقول لهواه: قف.

لكن الخشية لا تعني انسحاباً من الحياة؛ فالذي ينهى نفسه عن الهوى لا يهجر العمل والسياسة والمال والجمال، بل يدخلها بميزان. قد يكون أكثر الناس حركة وإعماراً، لكنه لا يسمح للوسائل أن تشتري ضميره. إنه لا يترك الدنيا للطغاة، بل يرفض أن يصير مثلهم وهو يعمرها.

حين تسقط كل الأعذار

في الطامة يتذكر الإنسان ما سعى؛ فلا يعود قادراً على القول إن المجتمع أجبره على كل شيء، أو أن الناس جميعاً كانوا يفعلون، أو أن مصلحته لم تترك له خياراً. نعم، للظروف أثر، والإكراه له حكمه، والله أعدل من أن يسوّي بين القادر والعاجز، لكن الإنسان يعرف في أعماقه المساحة التي اختار فيها. وتلك المساحة هي موضع مسؤوليته.

إن النفس تحب أن تقدم هواها في صورة قدر لا يمكن دفعه: «أنا هكذا»، «لم أستطع»، «ظروني فرضت عليّ». وقد يكون بعض العجز حقيقياً يعلمه الله، لكن بعضه اسماً ناعماً للاستسلام. نهي النفس يبدأ بإعادة اكتشاف مساحة القدرة؛ ربما لا أستطيع تغيير العالم، لكنني أستطيع ألا أكذب، وربما لا أملك إزالة الظلم كله، لكنني أستطيع ألا أكون أداته، وربما لا أمنع الخاطر، لكنني أستطيع ألا أحوله إلى فعل.

والله لا يكلف نفساً إلا وسعها، لكنه يعلم وسعها على الحقيقة، لا بالصورة التي يرسمها كسلها عن نفسها. لذلك لا يكون الحساب ظلماً؛ من وسعت رحمته ضعف العباد هو نفسه الذي يعلم موضع المكابرة داخل دعوى الضعف.

من فرعون الخارج إلى الهوى الداخل

في الفصل السابق كان فرعون يقول للناس: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ ، وفي هذا الفصل يظهر فرعون الداخل: الهوى حين يطلب من النفس طاعةً لا تُناقش. وكأن السورة تنتقل من استبداد الحاكم بالجماعة إلى استبداد الرغبة بالإنسان؛ فكلاهما يتجاوز الحد، وكلاهما لا يحتمل سلطةً أعلى منه.

ومن لم يتحرر من هوى نفسه قد يسقط أمام فرعون الخارج؛ لأن الطاغية يعرف أبواب الرغبات، فيشتري الطاعة بالمال أو المنصب أو الأمان. أما من نهى النفس، فقد أغلق كثيراً من الأبواب التي ينفذ منها الاستبداد. ولذلك فإن مجاهدة الهوى ليست شأنًا فرديًا منعزلًا، بل تأسيس للاستقلال الأخلاقي الذي لا تقوم حرية حقيقية من دونه.

وقد يهزم شعبٌ طاغيةً سياسيًا ويبقى هواه حاكمًا، فتتكرر الفرعونية بأسماء أخرى. والتحرر القرآني أعمق: تحرير الإنسان من عبادة المخلوق ومن عبادة النفس معًا، حتى تكون القوة في يد قلب خاشع، لا في يد شهوة تبحث عن عرش.

السؤال الذي ينبغي أن يسبق الطامة

قبل أن يأتي اليوم الذي يتذكر فيه الإنسان ما سعى، يستطيع الآن أن يسأل نفسه: أي الطريقين تصنعه اختياري؟ ليس المطلوب أن يجيب بما يجب أن يكون، بل بما يشهد به يومه: ماذا أفعل إذا تعارض الحق مع مصلحتي؟ كيف أتصرف حين لا يراني أحد؟ هل أقبل النصيح؟ هل أستطيع الرجوع؟ وما الشيء الذي إذا هُدد في الدنيا دفعت ديني ثمناً لحمايته؟

هذه الأسئلة ليست دعوة إلى القلق المرضي، بل إلى اليقظة. فالقلب السليم لا يدعي الأمان لنفسه، ولا ييأس من رحمة ربه؛ يمشي بين الخوف والرجاء، وكلما عثر عاد، وكلما غلبه الهوى استغفر وجاهد من جديد. ليست العبرة ألا تقع معركة، بل ألا تسلم رايتك للهوى. وهكذا تبلغ سورة النازعات مركز رسالتها: القيامة ليست مشهداً للمستقبل فحسب، بل ميزان للحاضر. إن استحضار الطامة هو الذي يمنع الإنسان من تحويل المتاع إلى غاية، والتذكر الآتي هو الذي يدعوه إلى المحاسبة الآن، والجحيم المبرزة تحذره من الاستهانة بالشر، واللجنة الموعودة تمنحه قوة على مجاهدة العاجل.

ولم يبق بعد أن عُرِض المصير إلا السؤال الذي ظل الإنسان يلاحق به الرسل: متى تقع الساعة؟ غير أن السورة ستكشف أن السؤال عن موعدها قد يكون آخر حيل الغفلة؛ فالإنسان يريد تاريخاً يشبع فضوله، بينما يريد الوحي قلباً يستعد. وسيأتي الجواب ليعيد العلم إلى صاحبه، ومهمة الرسول إلى حقيقتها، والإنسان إلى مسؤوليته: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾.

حين يسأل الإنسان عن الموعد ويحييه القرآن بوظيفة الاستعداد

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَاهَا ۖ قُلْ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ۖ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ۖ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ۖ كَانَهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾

بعد أن عرضت السورة مشاهد القيامة، وكشفت انقسام الناس إلى من طغى وآثر الحياة الدنيا، ومن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، كان يكفي أن ينصرف القلب إلى مراجعة طريقه؛ لكن الإنسان كثيراً ما يهرب من السؤال الذي يطالبه بالتغيير إلى سؤال يمنحه لذة المعرفة من غير كلفتها. بدل أن يسأل: كيف أنجو؟ يسأل: متى تقع الساعة؟

إنه يحاول أن ينقل القيامة من مجال المسؤولية إلى مجال التوقيت، ومن حقيقة تهز حياته إلى معلومة يضعها في ذاكرته. ولو عرف موعدها ربما تخيل أنه يستطيع أن يوزع عمره بين غفلة طويلة وتوبة متأخرة، وأن يحتفظ بالدنيا حتى اللحظة الأخيرة ثم يلتفت إلى الآخرة عند اقترابها. لكن الله أخفى موعدها ليظل الإنسان بين يدي الامتحان، فلا يعبد التاريخ المعلوم، بل يعبد رب الساعة، ولا يستقيم خوفاً من رقم يقترب، بل إيماناً بقاء لا يدري متى يفاجئه.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾

ليس كل سؤال دليلاً على طلب الهداية

السؤال في ذاته باب من أبواب العلم، والقرآن لا يذمّ رغبة الإنسان في الفهم، بل يدعو إلى النظر والتفكير. غير أن قيمة السؤال تتحدد بنيته وأثره: أهو سؤال يريد صاحبه أن يعرف الحق ليهتدي، أم يريد أن يحوّل الحق إلى مادة للجدل؟ أسأل لأنه مستعد للانقياد إلى الجواب، أم لأنه يطلب ثغرة يؤجل منها الاستجابة؟

كان سؤالهم عن الساعة يأتي غالباً في سياق الاستبعاد أو التحدي: إذا كانت واقعةً كما تقول، فمتى تقع؟ كأن تأخرها في تقديرهم دليل على عدم وقوعها، مع أن الموعد المؤجل لا يصير وهمًا مجرد أن الجاهل به استعجله. الطفل قد يستبعد شيخوخته لأنها بعيدة عن إحساسه، لكنها تتقدم نحوه مع كل يوم.

إن الإنسان مخلوق داخل الزمن، ولذلك يظن أن كل حقيقة يجب أن تكشف له عن تاريخها حتى يصدقها. لكنه لا يملك الزمن، ولا يرى منه إلا اللحظة التي يقف فيها؛ لا يعرف على التحقيق ما الذي سيأتيه بعد ساعة، ومع ذلك يريد أن يحاط علمًا بآخر ساعة في عمر العالم.

وسؤالهم للنبي ﷺ يكشف أيضاً تصوراً غير صحيح عن الرسالة؛ فقد ظنوا أن الرسول، ما دام يخبرهم بالقيامة، ينبغي أن يملك جميع مفاتيح الغيب المتصلة بها. نجاء القرآن ليرسم الحد الفاصل بين الوحي وبين ادعاء الإحاطة: الرسول يبلغ ما علمه الله، ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه. وصدق النبوة لا يقوم على تأليه النبي، بل على تمام عبوديته وأمانته.

وهذا من نقاء التوحيد؛ فكَانَةَ النبي ﷺ لا ترفع عنه وصف العبودية، ولا تجعله شريكاً لله في علمه. هو أشرف الخلق، لكنه لا يتقدم بين يدي ربه، ولا يدّعي ما لم يوحَ إليه. وإذا

كان الرسول يقف عند حدود ما علّمه الله، فمن الجرأة أن يدّعي أحد بعده تحديد ما استأثر الله بعلّهم!

﴿أَيَّانَ مَرْسَاهَا﴾

الساعة كسفينة بلغت مرساها

يسألون: متى مرساها؟ والإرساء هو الإثبات والاستقرار بعد حركة، كما ترسو السفينة عند مينائها. وقد مر في السورة قوله عن الجبال: ﴿وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا﴾؛ فأرسي الله الجبال في الأرض، وله وحده علم الساعة حين تبلغ مرساها المقدّر.

وفي التعبير صورة مهيبة: كأن الساعة سائرة في بحر الغيب إلى الميناء الذي حدده الله، لا تتقدم عنه ولا تتأخر. نحن لا نرى مسارها، لكن خفاء الرحلة لا يعني توقفها. لكل سفينة موعد وصول، ولكل أجل نقطة ينتهي عندها، وللتاريخ كله مرسى لا يتجاوز.

وإذا كانت الجبال راسية الآن بأمر الله، فإن الساعة سترسو في موعدها بأمره؛ فلا ثبات الجبال دائم، ولا خفاء القيامة فوضى. كلاهما داخل تقدير واحد: استقرار العالم له أجل، وانقلابه له أجل، والله الذي أمسك نظامه هو الذي يأذن بانتهائه.

لكن الإنسان يسأل عن مرسى الساعة وينسى مرسى عمره؛ والواقع أن ساعته الخاصة قد تكون أقرب إليه من الساعة العامة. فبموته ينتهي زمن عمله، ويدخل عالمًا لا يستطيع فيه استدراك ما ترك. ومن جهل موعد موته لم تكن معرفته النظرية بموعد القيامة - لو أُعطيها - كافيةً لضمان استعداده.

إن الموت يحلر السؤال من فضوله: ما الفائدة أن أعرف متى ينتهي العالم إذا كنت لا أعرف متى تنتهي فرصتي داخله؟ قد تبقى على القيامة أزمنة لا يعلمها إلا الله، لكن قد لا يبقى لي إلا يوم أو ساعة أو نفس. ولذلك كانت الحكمة أن ينشغل الإنسان بما يملك: عمل اللحظة، لا توقيت الغيب.

﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾

ردُّ التكليف إلى حدوده

تأتي الآية بأسلوب موجز قوي: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾؛ أي ليس علم وقتها إليك، ولا أنت في شيء من تحديده حتى تُسأل عنه. إنما وظيفتك أن تذكّر بها وتنذر الناس، أما توقيتها فمن العلم الذي استأثر الله به.

وهذا الخطاب لا يحمل انتقاصاً من مقام النبي ﷺ، بل يعلن كمال عبوديته؛ فالعظمة ليست في ادعاء ما لم يُعط، وإنما في الوقوف الأمين عند الحد الذي رسمه الله. والرسول لا يملك أن يضيف إلى الوحي من عنده جواباً يرضي السائلين، ولو كان سكوت الوحي سيجعلهم يتخذون ذلك مادةً للسخرية.

ما أندر هذا الأدب في عالم يميل فيه الإنسان إلى أن يبدو عالماً بكل شيء! قد يُسأل عما لا يعلم، فيثقل عليه أن يقول: لا أدري، لأنه يظن أن الاعتراف بمحدود المعرفة نقص في منزلته. أما المنهج القرآني فيريّ على أن «لا أعلم» في موضعها أمانة، وأن الجواب المتكلف خيانة للحقيقة ولو صيغ بلغة واثقة.

وفي الآية تحرير للعقل من الاشتغال بما لا طريق له إليه. ليست كل مسألة يقدر الإنسان على صياغة سؤال مما يمكنه الوصول إلى جوابها؛ فثمة غيوب استأثر الله بها، وكال العقل أن يعرف حدّه كما يعرف قدرته. التواضع المعرفي لا يلغي البحث في الممكن، بل يحميه من التبدد وراء أبواب أغلقها الوحي.

وكم أهدر الناس من أعمارهم في مطاردة مواعيد ادّعاها المتكلفون، وربطوا الحوادث بنبوءات لا برهان عليها، ثم جاء الموعد وسقط الادعاء وبقي الشغف بموعد جديد! إن النفس التي تكره تكاليف الاستعداد قد تستبدل بها إثارة التوقع؛ تتابع العلامات والسنوات، لكنها لا تغيّر خلقاً ولا ترد مظلمة.

الآية تعيدها إلى بساطة النجاة: لست مطالباً بمعرفة ما أخفاه الله، لكنك مطالب بالعمل فيما أظهره؛ تعرف أن الساعة آتية، وتعرف طريق الجنة وطريق الجحيم، وهذا هو العلم الذي تقوم به الحجة.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾

العلم ينتهي إلى صاحبه

كل سؤال عن توقيت الساعة يصل إلى هذا الحد: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾. عند الله ينتهي علمها، وإليه مرد تحديداتها وإقامتها. لا ملك مقرب ولا نبي مرسل يعلم موعدها استقلالاً، وإنما علمها عند رب العالمين.

وتقديم الجار والمجرور: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يفيد الاختصاص؛ إليه وحده منتهى أمرها وعليها. وهنا يغلق باب التكهن الذي يريد اقتحام الغيب، وينفتح باب الثقة؛ فالساعة ليست سائبة ولا مجهولة في ذاتها، وإنما هي مجهولة لنا معلومة لربنا. وما نجعله لا يعني أن الوجود يحمله. هذا الفرق يصنع الطمأنينة؛ فالمؤمن لا يعيش في كون ضاعت مفاتيحه، بل في ملك يحكمه رب علم. قد يُخفى عنه الموعد، لكن الذي يعرفه حكيم رحيم عادل، ولا تقع الطامة خلافاً في نظامه، بل اكتمالاً له حين ينتهي الابتلاء ويبدأ الجزاء.

واختيار كلمة ﴿رَبِّكَ﴾ يعيد العلم إلى الربوبية؛ فالذي ربّى رسوله وحفظه وكلفه بالإنذار هو الذي يدبر النهاية. لم يقل: إلى الإله منتهى علمها في هذا الموضع، على جلال الاسم، بل: ﴿رَبِّكَ﴾، لتدخل في الجواب نبرة قرب ورعاية؛ نفعاء الساعة ليس حرماناً عبثياً، بل جزء من منهج التربية والابتلاء.

إن معرفة الموعد ربما أفسدت معنى الاختبار؛ فقد يجعل الإنسان التوبة مناورة زمنية، ويؤدي الطاعة قبيل النهاية كما يؤدي واجباً مؤجلاً. أما الخفاء فيكشف صدق القلب: أيعبد الله لأنه يستحق العبادة، أم لأنه رأى العقوبة تقترب في التقويم؟

وفي الوقت نفسه لا يترك الله الإنسان بلا علامات تذكّره؛ كل موت علامة شخصية، وكل ضعف بعد قوة علامة، وكل سقوط لحضارة، وكل تبدل في الجسد، وكل غروب للشمس. لم نُعطَ التاريخ، لكننا أخطأنا بالتذكير.

بين علم الغيب وأدب العبودية

إن قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ يضع قاعدةً في التعامل مع الغيب: ثبت ما أثبتته الوحي، وتوقف حيث توقف، ولا نحول الظنون إلى يقين. فالإيمان بالغيب ليس انطلاقاً للخيال بلا حد، بل انضباط بما أخبر الله ورسوله.

وقد يتوهم بعض الناس أن كثرة التفاصيل المزعومة تزيد إيمان العامة، لكنها قد تربط إيمانهم بأخبار هشة؛ فإذا سقطت سقط معها شيء من يقينهم. أما القرآن فيبني الإيمان على الحقيقة الثابتة: الساعة آتية لا ريب فيها، وتوقيتها عند الله، ووظيفتك أن تستعد.

إن النفس تحب الغيب لأنه مثير، لكنها قد تنسى أن الغيب في القرآن ميدان عبودية لا تسلية. تؤمن به ليعيد تشكيل حاضرننا، لا لنملأ به فراغ الفضول. فإذا لم تجعلنا معرفة الآخرة أصدق وأعدل وأرحم وأشد محاسبةً لأنفسنا، فقد حملنا ألفاظها ولم نبغ مقصدها.

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مِّنْ يَّخْشَاهَا﴾

همة الرسول: إيقاظ القلب قبل فوات الأوان

بعد نفي علم توقيت الساعة عن الرسول ﷺ، ثبت الآية مهمته: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مِّنْ يَّخْشَاهَا﴾. ليس مطلوباً منه أن يكشف التاريخ، بل أن يكشف الخطر؛ لا أن يرضي الفضول، بل أن يوقظ الضمير.

والإنذار هو الإعلام بما يُخاف قبل وقوعه، ليتمكن المخاطب من اجتنابه. ولذلك فهو في جوهره رحمة؛ فالتحذير الذي يأتي بعد وقوع الخطر لا ينقذ، أما الرسول فينذر الناس والباب مفتوح، والعمر مستمر، والعمل ممكن.

وقد وصفت الآية النبي ﷺ بالمنذر في هذا المقام، مع أنه بشير أيضاً؛ لأن سياق السورة سياق إيقاظ من الغفلة عن الساعة. والدعوة القرآنية تجمع البشارة والإنذار، فلا تسوق الناس إلى الله بالرعب وحده، ولا تمنحهم أماناً يخدّرهم. الخوف يقطع طريق الجرأة على المعصية، والرّجاء يمنع اليأس، والمحبة تمنح السير روحه.

أما قوله: ﴿مَنْ يَخْشَاهَا﴾ فلا يعني أن الإنذار لا يُبلّغ إلا لمن سبق أن خشي؛ فالرسول مبعوث إلى الناس، وإنما يعني أن الذي ينتفع بالإنذار حقاً هو من يستعد قلبه للخشية. الشمس تشرق على العيون كلها، لكن المغمض لا ينتفع بضوئها. والآية تُثلى على الجميع، غير أن قلباً يلين وقلباً يحولها إلى مادة للجدل.

والخشية هنا ليست خوفاً غامضاً من حادثة مجهولة، بل خشية لما تتضمنه الساعة من الوقوف بين يدي الله وانكشاف السعي والجزاء. من خشيها لم يقض حياته مرعوباً من الزمن، بل عاش مسؤولاً؛ فأثر الخشية الصحيح ليس تعطيل العمر، وإنما حسن استعماله.

إن الذي يخشى القيامة يزرع، ويبني، ويؤلف، ويصلح، ويحب، لكنه يفعل ذلك بميزان مختلف. لا يجعل نجاح المشروع عذراً للظلم، ولا استعجال النتيجة مبرراً للخيانة، ولا طلب الأثر باباً لعبادة صورته؛ لأنه يعلم أن القيمة النهائية ليست في حجم ما صنع فقط، بل في صدقه وعدله ووجهته.

الإنذار الذي لا يملك الإكراه

قال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾، ولم يقل: مسيطر على القلوب. فالنبي يوضح الطريق، لكن الإنسان هو الذي يتحمل مسؤولية اختياره. وهذه قاعدة تحمي الدعوة من التحول إلى قهر؛ إذ لا يجوز للداعي أن يتخذ حرصه على الناس مبرراً لإلغاء إرادتهم أو التعدي عليهم.

قد يحزن حامل الحق لأن قريباً منه لا يستجيب، وقد يبذل النصيحة مرة بعد مرة، لكنه لا يملك أن يفتح القلب بيده. وفي معرفة هذا الحد رحمة به أيضاً؛ فلا يحمل نفسه عبء النتائج، ولا يتوهم أن تأخر الهداية دليل حتمي على فشل بلاغه. عليه الصدق والحكمة والصبر، والهداية بيد الله.

لكن عدم الإكراه لا يعني برودة البلاغ؛ فالمنذر يرى الخطر، ولذلك تحمل كلمته حرارة الرحمة. إن من رأى طفلاً يقترب من نار لا يقول: لست مسؤولاً عن اختياره ثم يمضي، بل يناديه بقدر الخطر. وهكذا كان الرسول ﷺ يحمل هم هداية الناس حتى خاطبه الله بما يرفق بقلبه. فالفرق كبير بين تفويض النتيجة إلى الله وعدم الاكتراث بالناس.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾

حين تنتقل الساعة من الخبر إلى المعاينة

كانت الآية قبلها تقول: ﴿مَنْ يَخْشَاهَا﴾، والخشية عمل القلب تجاه غيب صدقه، ثم تقول: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾؛ فالذي كان غيباً يصير شهادة. هناك لا يبقى منكر للساعة من حيث الوقوع، لكن التصديق الاضطراري بعد الرؤية لا يعوض الإيمان الاختياري قبلها.

إن قيمة الإيمان أنه يقع في زمن الحجاب؛ حين يستطيع الإنسان أن يكذب لكنه يصدق خبر الله، ويستطيع أن يتبع هواه لكنه يختار الطاعة. أما إذا انكشف الغيب وصار كالمحسوس، انتهى امتحان التصديق.

وكلمة ﴿يَرَوْنَهَا﴾ تختصر كل مشاهد السورة: الراجفة والرادفة، والقلوب الواجفة، والأبصار الخاشعة، والساهرة، والطامة، والحجيم المبرزة. ما كانوا يسألون عنه ساخرين أصبح محيطاً بهم، فلا يعود السؤال: متى؟ بل كيف غفلنا؟

وهنا يكتشف الإنسان أن أكثر ما كان يخشاه في الدنيا لم يكن الخوف الأكبر، وأن أكثر ما كان يطلبه لم يكن المكسب الأعظم. تتغير قيمة الأشياء دفعةً واحدة، لكن متأخرة. والحكمة أن يصحح الوحي ميزاننا الآن، قبل أن تصححه المعاناة حين لا نستطيع العودة.

﴿لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾

انكماش العمر أمام الأبد

حين يرون الساعة، تبدو لهم مدة الدنيا أو مدة اللبث في القبور قصيرةً إلى الغاية: ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾؛ طرفاً من نهار، إما آخره أو أوله. العمر الذي استغرق صاحبه عشرات السنين، وملاه بالتفاصيل والخلافات والمخاوف، ينكمش في ذاكرته كأنه ساعات.

والعشية آخر النهار، والضحى أوله، وأضاف الضحى إليها: ﴿ضُحَاهَا﴾، أي ضحى تلك العشية أو نهارها، على أسلوب عربي يجمع طرفي الزمن القصير. وكأن الحياة كلها لا تستحق في مقابل الآخرة أكثر من إشارة إلى شطريوم.

ومن روائع اتصال خاتمة السورة بوسطها أنها قالت في بناء السماء: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾، ثم تختتم بـ ﴿عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾. ذلك الضحى الذي كان جزءاً من نظام الحياة يصبح وحدةً يقاس بها قصر الحياة كلها. ما بين ليل وضحى انقضت الدنيا، وبقي ما زرعه الإنسان فيها للأبد.

إن قصر الدنيا لا يعني أنها بلا قيمة؛ بل على العكس، قيمتها عظيمة لأنها المدة القصيرة التي يتحدد فيها المصير الطويل. الدقيقة المحدودة قد تكون أثنى من قرون إذا كانت هي الفرصة الوحيدة للعمل. والدنيا قصيرة، لكنها موضع الأمانة؛ زائلة، لكنها الطريق إلى الخلود؛ متاع، لكنها رأس المال الذي لا يُستعاد بعد انقضائه.

الخطأ إذن ليس أن يعيش الإنسان لحظته، بل أن يعيشها مبتورةً عن نهايتها؛ وليس أن يفرح بالضحى، بل أن ينسى أن النهار يمضي؛ وليس أن ينتفع بالمتاع، بل أن يبيعه أبده. من عرف قصر الدنيا لم يحتقرها، وإنما صانها من أن تضع في التافه؛ لأن القليل إذا لم يتكرر صار كل لحظة فيه نفيسة.

العمر الذي بدا طويلاً

كم من ألم ظن صاحبه أنه لن ينتهي، ثم صار ذكرى بعيدة! وكم من لذة بدت كاملة، ثم لم يبق منها إلا أثر في النفس أو الصحيفة! هكذا تعلمنا الحياة نفسها أن الزمن يعيد تقليص الأحداث بعد أن كانت تملأ الوعي. والقيامة هي الانكشاف الأكبر لهذا القانون؛ تنكش الدنيا كلها أمام امتداد الآخرة.

قد يضحي الإنسان بدينه لأجل لحظة، ثم تنقضي اللحظة ويبقى ثمنها. وقد يصبر عن معصية دقائق، فتنتهي الشهوة ويبقى له انتصاره. إن استحضار قصر الزمن يمنح القلب قوةً في لحظة الامتحان: هذه اللذة ستمر، وهذا الألم سيمر، لكن الوجهة التي أصنعها باختيارى قد تبقى.

والصابر لا ينكر ثقل الساعة؛ العشيّة قد تطول على المتألم، والضحى قد يكون ممتلئاً بالابتلاء، لكن يقينه يقول: ليس هذا هو الفصل الأخير. وفي هذا المعنى عزاء لا يلغي الحزن بل يمنعه من اليأس؛ فالدنيا، بكل ما فيها، عشيّة أو ضحاها، والموعود عند رب لا يضيع عنده صبر.

من سؤال «متى؟» إلى سؤال «كيف ألقى الله؟»

جاءوا يسألون عن موعد الساعة، فختمت السورة بتصغير مدة الحياة نفسها. كأن الجواب يقول: ما قيمة معرفة الموعد إذا كان كل ما قبله سيبدو كعشية أو ضحاها؟ ليس السؤال الذي ينبغي: متى ترسو الساعة؟ بل: على أي حال ترسو وأنت فيها؟

هل تأتني وقد طغيت وآثرت الحياة الدنيا، أم وقد خفت مقام ربك ونهيت النفس عن الهوى؟ هل تذكر سعيًا يفتح لك باب الرجاء، أم سعيًا تتنى لو كانت بينك وبينه مسافات؟ وهل كنت ممن انتفعوا بالإنذار قبل الرؤية، أم ممن لم يصدقوا حتى رأوا؟

وهذا التحويل من التوقيت إلى الاستعداد واحد من أعظم مناهج القرآن في إصلاح الأسئلة. فالإنسان قد يسأل سؤالاً صحيح الألفاظ، لكن حاجته الحقيقية تكمن في موضع آخر. والقرآن لا يكون تابعاً لفضوله؛ يأخذ بيده إلى السؤال الذي يصلح حياته.

ما أرحم أن يُحجب عنا الموعد وتُكشف لنا الطريق! لو عرفنا الساعة وجهلنا طريق النجاة، لكانت المعرفة عذاباً؛ لكن الله أخفى التاريخ وبين المنهج: تزكية وهداية وخشية، وإيمان بالبعث، واعتبار بمصير الطغاة، ونظر في آيات الخلق، ونهي للنفس عن الهوى. فما بقي عذر لمن انشغل بالمفقود عن الموجود.

خاتمة السورة وعودة الإيقاع إلى القلب

بدأت سورة النازعات بحركة سريعة في عالم الغيب، ثم رجفت الأرض، وقامت القلوب واجفة، وخرج الخلق إلى الساهرة. وبعد ذلك انتقلت إلى فرعون الذي طغى، وإلى السماء التي بناها الله، والأرض التي دحاها، ثم إلى الطامة التي تبرز فيها الجحيم وتفتح بعدها الجنة لمن خاف مقام ربه.

وأخيراً تطوي السورة الزمن كله في عشية أو ضحاها. كأنها أخذت الإنسان من لحظة نزع روحه، وعبرت به في انقلاب الكون، ثم ردتّه إلى التاريخ والخلق والنفس، حتى أوصلته إلى آخر سؤال: ماذا سيفعل الآن؟

ليس المطلوب أن يغادر القارئ السورة وهو يعرف مشاهد أكثر عن القيامة فحسب، بل أن يغادرها وقد تغيرت علاقته بعمره. أن يرى كل يوم جزءاً من الطريق، وكل رغبة امتحاناً للقيادة، وكل قوة أمانة، وكل ظلم بذرة طغيان، وكل آية في الكون جواباً عن إمكان البعث.

إن الساعة لا تحتاج إلى أن نعرف موعدها حتى تكون قريبة؛ يكفي أن أعمارنا قصيرة، وأن الموت لا يعلن موعده، وأن ما مضى من الأيام صار في إحساسنا كأنه عشية. وكما انطوت الأعوام السابقة في الذاكرة، سينطوي ما بقي، ثم يجد الإنسان نفسه أمام اليوم الذي كانت السورة توقظه له.

هناك لن يقول: ليتني عرفت متى تقوم الساعة، بل: ليتني أحسنت فيما أُعطيت من الوقت. ولذلك فإن أعقل إجابة عن سؤال القيامة ليست تاريخاً، بل توبة؛ وليست حساباً للسنوات، بل إصلاح لهذا اليوم؛ وليست تتبعاً للغيب الذي استأثر الله به، بل وفاءً بالأمر الذي وضعه بين أيدينا.

هكذا تختم سورة النازعات رسالتها: الساعة عند الله، والإنذار بين يديك، والعمر يمر، والطريقان واضخان. ومن وراء ضجيج العالم تمضي الحقيقة في صمتها المهيب، حتى تأتي اللحظة التي لا يعود فيها الغيب غيباً، ولا يبقى من الدنيا الطويلة إلا عشية أو ضحاها.

حين يستيقظ القلب قبل أن تُنزع الروح

هكذا تنتهي سورة النازعات، ولكنها لا تنتهي في القلب؛ لأن آخر آياتها تعيد الإنسان إلى أول الطريق، وتتركه واقفاً أمام عمره بعد أن رأى نهايته. تبدأ السورة بأيدٍ غيبية تنزع الأرواح، وتُختتم بساعة طوي عليها عن الخلق، وبين البداية والخاتمة تسير بالإنسان من موته الفردي إلى رجفة الكون، ومن قبره المظلم إلى الساهرة المكشوفة، ومن طغيان فرعون في القصر إلى طغيان الهوى في النفس، ومن بناء السماء ودحو الأرض إلى الطامة التي ينتهي عندها البناء كله، ولا يبقى من الإنسان إلا ما سعى.

إنها سورة لا تدع الحياة تستقر في وعينا على صورتها المألوفة؛ تنزع عنها قناع الدوام، وتكشف أن تحت سكونها حركة لا تتوقف، وأن الأيام التي تبدو متشابهة تحملنا إلى موعد لا يتشابه مع شيء عرفناه. نحن نرى البيوت ثابتةً، والوجوه حاضرة، والطرق ممتدة، والمشروعات مفتوحة على الغد، لكن وراء هذا المألوف أجلاً يمضي، وملائكة تنفذ، وزجرة ستخرج الخلق، وساهرة سيجتمعون عليها، وطامة تعلو على كل ما كان يملأ القلب.

ولعل أول ما تريد السورة أن تنزعه منا قبل أن تُنزع أرواحنا هو وهم الملك؛ أن نشعر بأن الأجساد لنا، والأعمار لنا، والأشياء التي بين أيدينا لنا على معنى الاستقلال. والحقيقة أننا نعيش في عطايا مؤقتة: الجسد أمانة، والعمر مهلة، والأرض متاع، والماء والمرعى رزق، والقوة اختبار، وكل ما نقول عنه «لي» عائد يوماً إلى مالكة الأول. لا يحرمنا هذا الإدراك

لذة النعمة، بل يطهرها من العبودية؛ فنستمتع من غير أن نتأله، ونملك من غير أن تستعبدنا الممتلكات، ونحب من غير أن نجعل المحبوب نداءً للحق.

فالموت في مطلع السورة ليس حادثةً طبيةً تنتهي عندها وظائف الجسد، وإنما لحظة سقوط الدعوى الكبرى التي عاش بها الإنسان: دعوى أنه قادر على تأجيل النهاية. وحين تبلغ الروح موضع النزاع، لا يبقى للإنسان أن يعيد كتابة يوم واحد، أو يسحب كلمةً أطلقها، أو يردّ فرصةً أهدرها. هناك تنفصل الإرادة عن ميدان العمل، ويبدأ انكشاف ما صاغته تلك الإرادة طوال العمر.

ولهذا لم تكن السورة تخوّف الإنسان من الموت كي تفسد عليه حياته، بل كي تنقذ حياته من الضياع. فمن عرف أن الطريق ينتهي لم يبدد خطواته في كل اتجاه، ومن أيقن أن الروح ستغادر لم يجعل جسده إلهًا لرغباته، ومن استحضر أن الدنيا ستتكش حتى تبدو كعشية أو ضحاها لم يبع آخرته من أجل ساعة عابرة.

ثم تأخذنا السورة إلى الراجفة والرادفة؛ إلى اليوم الذي يفقد فيه العالم الثبات الذي استند إليه الإنسان. فالجبال التي أُرسيّت ستزول، والأرض التي هُيئت للمعاش سترجف، والسماء التي بُنيت ستغير، والكون الذي عشنا داخل انتظامه سيبلغ الأجل الذي كتبه الله له. وحين تهتز الثوابت الخارجية، تظهر حقيقة القلب: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ (١٠٠) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿١٠١﴾.

كأن السورة تقول: اجث عن الثابت الذي لا يرجف. ليس هو المال، فقد يذهب، ولا الجسد، فقد يضعف، ولا المنصب، فقد ينتقل، ولا الناس، فإن قلوبهم تتغير وأعمارهم

تنتهي. الثابت هو الله، والآمن من استقر قلبه على العبودية له، لا لأنه لن يتألم أو يخاف، بل لأن الألم لا يسلبه وجهته، والخوف لا يقطعه عن ربه.

وإذا كان كل ما حول الإنسان قابلاً للرجفة، فما أقسى أن يبني يقينه كله على مخلوق! وما أرحم الرجفات الصغيرة حين تكشف لنا، ونحن ما نزال في زمن العمل، أن ما اتكأنا عليه لم يكن قادراً على حمل أرواحنا! قد يأتي فقد أو مرض أو انكسار فيسقط جزء من العالم الذي رتبناه، فنظنه شراً محضاً، مع أنه قد يكون نداءً يعيد القلب من الأطراف إلى مركزه، ومن الثقة بالعطايا إلى الثقة بالمعطي.

ثم تعرض السورة اعتراض الإنسان: ﴿إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۖ إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً﴾، فإذا هو ينظر إلى فتات العظام وينسى خالقها، وقيس القدرة الإلهية على قدرته، ويجعل عجزه الشخصي حداً للممكن. فتجيبه السورة في كلمات لا تحتمل التردد: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾.

ما يراه الإنسان مسافةً هائلةً بين التراب والحياة ليس أمام أمر الله إلا زجرة واحدة. نحن الذين نحتاج إلى الزمن والتجربة والمحاولة، أما قدرة الله فلا نتعلم، ولا نتدرج، ولا يعوقها تفرق الأجزاء. وما كان عدماً تخلفه أول مرة لا يعجزه أن يعيده بعد أن صار أثراً في علمه الذي لا يضل ولا ينسى.

لكن إنكار البعث لا يبقى فكرة في العقل؛ إنه يتسرب إلى ميزان السلوك. فمن لم ير بعد الدنيا موقفاً للحساب، أطلق لهواه أن يتسع، وإذا اجتمع الهوى بالقوة وغياب الخشية وُلد فرعون. ولهذا جاءت قصة موسى في قلب السورة؛ لا لتقطع حديث القيامة، بل لتكشف ما يصنعه نسيانها في الأرض.

في الوادي المقدس نادى الله موسى، وفي القصر نادى فرعون قومه. نداء الله صنع عبداً تحرر من خوف الطاغية، ونداء فرعون صنع حشداً يراد له أن يثبت ألوهية زائفة. موسى يسمع من ربه: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾، وفرعون يقول للناس: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾. وما بين النداءين تاريخ الصراع كله: وحي يعيد الإنسان إلى عبوديته، وطغيان يريد أن يجعل البشر عبيداً للبشر.

ومع ذلك لم يرسل موسى إلى فرعون حاملاً لغة التشفي، بل كلمة تكشف سعة الرحمة: ﴿هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ۖ وَاهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾. لم يقل: انتهت، بل عرض عليه البداية؛ لم يسلبه إنسانيته بسبب جرائمه، بل خاطب فيه الإمكان الأخير للعودة. كأن الله يعلمنا أن وضوحنا في مواجهة الباطل لا يبيح لنا أن نتلوث بكراهيته، وأن عدل القضية لا يعني الكلمة من أدها، وأن غاية الدعوة ليست هزيمة المخاطب، بل إنقاذه إن استجاب.

كان باب التزكية مفتوحاً لفرعون، لكن دخوله يتطلب أن يخلع ألوهيته المصنوعة، ويرد الحقوق، ويرى نفسه عبداً. وهنا رفض؛ لأن بعض النفوس لا تترك الحق لخلفائه، بل لما يطلبه من تغيير. لقد رأى الآية الكبرى، لكنه رأى معها نهاية الصورة التي صنعها لنفسه، فاختار صورته على نجاته: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾.

ثم لم يقف الرفض عند قلبه: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۖ فَخَسَرَ فَنَادَىٰ﴾. وهكذا يرسم القرآن تشریح الطغيان: يبدأ بتكذيب، ثم عصيان، ثم إدبار، ثم سعي لمحاربة الحق، ثم حشد للناس، ثم صناعة خطاب عام، حتى تنطق الأنا بأكل أوهامها: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾.

إن فرعون لم يولد في اللحظة التي نطق فيها تلك الكلمة، بل تكون مع كل حد تتجاوزه، وكل ناقد أسكته، وكل ظلم برره، وكل مدح صدقه، وكل إنسان حوله إلى أداة. فالفرعونية

ليست كلمة فقط، بل مسار، ولهذا يستطيع كل واحد منا أن يعثر على بداياتها في نفسه إذا صدق: حين يرفض المراجعة، أو يجعل مكانته فوق الحق، أو يطلب ممن يضعف أمامه طاعة لا يمنحها الشرع، أو يغضب لأن الناس لم يدوروا حول صورته كما يشتهي.

وقد لا تملك قصراً أو جنوداً، لكن لكل إنسان مساحة يمكن أن يطغى فيها؛ بيتاً أو منصباً أو قلماً أو جمهوراً أو علماً. وليس السؤال: هل قلت يوماً «أنا ربكم الأعلى»؟ بل: هل تصرف في موضع كأن إرادتك لا تُرد، وكأن خطأك لا يجوز أن يسمّى خطأ، وكأن كرامة الآخرين أقل من أن توقف غضبك؟

إن التزكية التي عُرِضت على فرعون هي باب النجاة من هذا الطاغية الداخلي. أن يتعلم الإنسان الاعتذار قبل أن تتحول هفوته إلى نظام دفاع، وأن يقبل النقد قبل أن تحيط به حاشية من المجاملات، وأن يرى القوة أمانة لا شهادةً بالتفوق الذاتي. فما أيسر أن يدين المرء فرعون التاريخ، وما أشق أن يواجه الفرعون الذي يتكلم أحياناً بصوته!

ثم تأتي الخاتمة الحاسمة لادعاء الربوبية: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾. قال فرعون: «أنا»، فردته الآية إلى كونه مأخوذاً؛ قال: «ربكم»، فأظهر الله من الرب الحق؛ وقال: «الأعلى»، فإذا علوه الزائف طريق إلى أسفل السقوط. لقد امتلك الناس زمناً، لكنه لم يمتلك أجله؛ أخاف الجموع، لكنه لم يستطع أن يؤخر الماء حين جاءه أمر الله.

إن في ذلك عزاءً للمظلوم وتحذيراً للقوي. للمظلوم: لا تجعل امتداد الطغيان برهاناً على خلوده، فالإمهال ليس إهمالاً، والله يرى ما لا تستطيع أنت إثباته ويقدر على من تعجز عن بلوغه. وللقوي: لا تقرأ تأخر العقوبة رضا، ولا تظن أن بقاء النعمة تزكية لكل أفعالك؛ قد يكون الباب مفتوحاً للتوبة، وقد يكون الجبل ممتداً حتى تكتمل الحجة.

بعد ذلك ترفع السورة رأس الإنسان إلى السماء: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾. والسؤال لا يحتاج إلى جواب؛ السماء نفسها تجيب. ارتفاعها وتسويتها، ليلها ونهارها، الأرض ودحوها، الماء والمرعى، الجبال وإرساؤها؛ كل ذلك خطاب قدرة موجه إلى قلب استبعد أن تعاد عظامه.

ما أشد فقر الإنسان وهو يعيش داخل نعم لا يصنع أصولها! لا يفتح الصباح، ولا يخلق الماء، ولا يأمر البذرة أن تنبت، ولا يرسي الجبل، ثم يتحدث عن استحالة البعث كأنه أحاط بالقدرة علماً. لقد منحته الحضارة قدرة على استعمال بعض السنن، فتوهم أحياناً أنه خلقها؛ وبني سقفاً صغيراً، فنسي السماء التي لم يرفع فيها حجراً؛ ونقل الماء في الأنابيب، فنسي أنه لا يصنع حقيقته.

لكن مشهد الكون لا يقيم برهان البعث وحده؛ إنه يعيد النعمة إلى صاحبها. كل لقمة تبدأ من نظام لم ينشئه الإنسان، وكل قطرة شهادة بالعناية، وكل صباح منحة لعمر كان يمكن ألا يُرد. وعندئذ لا يعود الشكر كلمة تقال بعد الطعام فحسب، بل طريقة في استعمال الوجود: أن نأخذ من غير إفساد، ونملك من غير استئثار، وننتفع من غير أن ننسى حق المنعم وحقوق عباده.

غير أن السماء المبنية ستغير، والأرض المدحوة سينقضي زمنها، والجبال المرساة ستزول؛ لأن كل ذلك كان ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾. ثم تأتي الطامة الكبرى، فينتهي المتاع ويبقى السعي: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾.

هذه هي اللحظة التي تسقط فيها السيرة التي كتبها الإنسان عن نفسه، وتظهر السيرة التي كتبها عمله. كم كنا نزوي ذواتنا بطريقة تخفف عيوبنا وتضخم محاسننا! كم حفظنا ما صنعه الناس

بنا ونسينا ما صنعناه بهم! لكن ذاكرة الآخرة لا تخضع لهوانا؛ يستعيد الإنسان ما سعى، لا ما ادعى، ويرى النيات والوسائل والآثار في ميزان لا يجامل.

ولأن ذلك التذكّر آتٍ، كان أرحم ما نصنعه بأنفسنا أن نتذكر الآن؛ أن نراجع من غير أن نكره ذواتنا، ونعترف من غير أن نياس، ونتوب قبل أن يتحول الذنب إلى هوية. إن المحاسبة في الدنيا لا تهدف إلى سجن الإنسان في ماضيه، بل إلى تحرير مستقبله منه. وما دام العبد قادراً على الندم والإصلاح، فإن الصفحة لم تغلق، ورب التائبين لا يعجزه أن يخرج من سواد الماضي فجراً جديداً.

ثم تلخص السورة الطريقتين في كلمات قليلة تحمل مصير الإنسان كله: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ۖ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾. لم تكن المشكلة أنه عاش في الدنيا، بل أنه آثرها؛ جعلها الأولى حين تعارضت مع رضا الله، واختار ربحها ولو خسر قلبه. فالدنيا لا تُذم لأنها دنيا، بل لأنها حين تكبر في القلب تحجب ما بعدها، وتمنح اللذة العاجلة حق التحكم في المصير.

وفي الجهة المقابلة: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَبَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾. هنا تبلغ السورة سرّ النجاة: خوف يستحضر المقام، ومجاهدة تمنع الهوى من القيادة. لم تقل: من لم يكن له هوى؛ فهذا ليس وصف البشر، وإنما قالت: ﴿نَبَىٰ النَّفْسَ﴾. أي إن الجنة تقع في نهاية معركة، وإن أصحابها لم يكونوا بلا رغبات، بل كانوا أحراراً بما يكفي ليقولوا لبعض رغباتهم: لا.

وهذه هي البطولة التي لا تصنع ضجيجاً في الأرض، لكنها عظيمة في السماء؛ أن يقدر الإنسان على المعصية ثم يتركها لأن الله يراه، وأن يملك جواباً جارحاً ثم يحبس لسانه، وأن

تعرض عليه منفعة مشبوهة فيردها، وأن يهتز قلبه بالشهوة ثم يقيم بينه وبينها حد الله. لا جمهور يصفق، ولا كاميرات تسجل، لكن الله يرى، وتلك كفاية من عرف مقام ربه.

إن نهي النفس عن الهوى لا يعني قتل الجمال في الحياة، بل تحريره من الفوضى؛ فالإسلام لا يريد إنساناً بلا رغبة، وإنما إنساناً لا تعبده رغبته. يأكل ولا يستعبده الطعام، ويحب ولا يظلم باسم الحب، ويطلب النجاح ولا يبيع قيمه، ويمتلك القوة ولا يتجاوز بها حده. إنه يضع كل شيء في مرتبته، لأن قلبه عرف لمن تكون المرتبة العليا.

ثم يسألون عن الساعة: ﴿أَيَّانُ مَرْسَاهَا﴾؟ ويأتي الجواب لا بتاريخ، بل بإعادة العلم إلى صاحبه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾. فالساعة لها موعد عند الله، لكن الإنسان ليست حاجته الكبرى أن يعرف مواعدها، بل أن يعرف موضعه منها. ما قيمة أن تعرف متى ينتهي العالم وأنت لا تعرف متى ينتهي أجلك؟ وما الذي تضيفه إليك معرفة التاريخ إذا لم تُصلح اليوم؟ لقد أخفى الله الموعد وكشف الطريق؛ وهذا من تمام الرحمة والحكمة. لو علم الإنسان ساعة النهاية ربما جعل التوبة آخر حيلة في عمره، لكنه لا يدري متى يدعى، فيبقى كل يوم صالحاً للقاء، وكل صباح فرصة لإعادة البناء. لا يعيش المؤمن مذعوراً من الزمن، بل وفيّاً له؛ يعرف أن الدقيقة وعاء يمكن أن يحمل ذكراً أو علماً أو عدلاً أو جبراً لخاطر، وأن العمر القصير يتسع للأبد إذا وُضع في مرضاة الله.

وعندما يرون الساعة، تنكمش الحياة كلها: ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾. أين الأعوام الطويلة؟ أين الليالي التي ظن الإنسان أن حزنها لا ينتهي؟ أين اللحظات التي باع من أجلها مبدأه؟ كل شيء صار طرفاً من نهار. بقي الأثر، وذاب الزمن الذي صُنع فيه.

وفي هذه الخاتمة القرآنية مواساة للبتي وردع للغافل. للبتي: ما يؤلمك سيمضي، وإن طال في شعورك؛ فلا تجعل العشية القصيرة تهدم يقين الأبد. وللغافل: ما يغريك سيمضي أيضاً؛ فلا تجعل لذة ضحى عابر تكتب عليك حسرة لا تنقضي. كلا الألم واللذة مؤقت، لكن الطريقة التي نلقاهما بها قد تصبح عملاً باقياً.

إن سورة النازعات تعيد تعريف النجاة؛ ليست النجاة أن تمرّ من الحياة بلا جرح، ولا أن تجمع أكبر قدر من المتاع، ولا أن تعلو على الآخرين، بل أن تبلغ النهاية وقلبك لم يتخذ رباً سوى الله، ويدك لم تحمل مظلمةً تصرّ عليها، ونفسك عرفت الهوى ولم تمنحه السيادة. النجاة أن تُنزع الروح وقد تعلمت قبل نزعها أن تنفصل عن كل عبودية سوى عبودية الله.

وهي تعيد تعريف الهزيمة أيضاً؛ ليس المهزوم من خسر منصباً أو مالاً أو معركةً عابرة، بل من ربح الدنيا بالطغيان ثم وجد الجحيم هي المأوى. فرعون بدا منتصراً زمنياً؛ حشر ونادى وملاً الأسماع بصوته، لكن موسى الذي خرج خائفاً كان هو المنتصر؛ لأن النصر لا يُقاس بلحظة سيطرة الباطل، بل بالمصير الذي تنتهي إليه الطرق.

فيا أيها الإنسان الذي تمرّبه هذه السورة: ليست النازعات خبراً عن آخرين، ولا الطامة مشهداً بعيداً عن يومك. إن كل آية فيها تعيدك إليك؛ إلى روح ستقبض، وقلب ينبغي أن يخشع، وهوى يحتاج إلى نهي، وقوة يجب أن تقف عند حدها، وعمر يتناقص وإن امتلأ بالمشروعات.

لا تسأل فقط: متى مرساها؟ بل اسأل: أين مرساي أنا؟ على أي يقين يستقر قلبي إذا رجفت الأشياء؟ وماذا يبقى مني إذا سقط اسمي ومالي وصورتي بين الناس؟ وأي سعي سأراه حين تُرفع الحجب؟

اجعل لك في كل يوم نزوعاً اختيارياً يسبق النزع الأخير: انزع قلبك من حقد يثقله، ومن مدح يستعبده، ومن خوف يذلّه، ومن شهوة تقوده. وانشط بروحك من عقال التسويف، واسبح في طاعة الله، وسابق إلى الخير، وسلم قلبك لتدبير من لا يضيع عنده شيء.

واخش مقام ربك، لا خوف اليأس الذي يفر منه، بل خشية العارف الذي يفر إليه. فإذا غلبك هواك فارجع، وإذا عثرت فتب، وإذا وجدت في نفسك بذرة فرعونية فاقتلعها قبل أن تمتد جذورها، وإذا فُتح لك باب قوة فاجعله طريقاً للعدل، وإذا مرّت بك آية في السماء أو الأرض فلا تسمح للألفة أن تحجبك عن مبدعها.

فالعمر، مهما طال، سيمضي كعشية أو ضحاها؛ لكن سجدة صادقة قد تعبر منه إلى الأبد، وكلمة حق قد تبقى، ومظلمة قد تتبع صاحبها، ودمعة خشية قد تكون أثقل في الميزان من عالم كامل من الضجيج.

وما بين قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ وقوله: ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ تقف حياتنا كلها: روحٌ مستودعة، ومتاعٌ محدود، وسعيٌ مكتوب، وموعِدٌ آتٍ. والسعيد من استيقظ قبل أن توفقه الراجفة، وخشع قبل أن تخشع الأبصار، وتزكى قبل أن يغلق الباب، ونهى النفس قبل أن يرى ما سعى، وجعل الله مأواه في قلبه في الدنيا، حتى تكون الجنة مأواه في الآخرة.

اللهم اجعلنا ممن خاف مقامك، ونهى النفس عن الهوى، وانتفع بإنذارك قبل أن يصير الغيب شهادة، واغفر لنا ما مضى من سَعِينَا، وبارك لنا فيما بقي من أعمارنا، ولا تجعل الدنيا أكبر همًّا ولا مبلغ علمنا، واجعل خير أيامنا يوم نلقاتك، وأكرم أرواحنا عند خروجها، وآمن قلوبنا يوم ترجف الراجفة، وأدخلنا برحمتك الجنة؛ فإنك أنت الغفور الرحيم.